أحلام صغيرة

مجموعة قصصية

كرم عبد الهادي

اسـم الكتـاب: أحلام صغيرة

اسـم المؤلـف: كرم عبد الهادي

الترقيم الـدولي: **978-977-6666-16-0**

جميع حقوق الطبع وإعادة الطبع والنشر والتوزيع © محفوظة لدار المحرر الأدبي للنشر والتوزيع المشهرة برقم 24821 بتاريخ 2015/10/1. ومقرها جمهورية مصر العربية / محافظة الجيزة.

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع، أو نشر أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون موافقة قانونية مكتوبة من الناشر يعرض صاحبه للمساءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالمؤلف فقط لا غير.

الوطن بحر يُغرقك في تلافيفه

يأخذك نحو أعماقه بلا رجعة

طين الوطن من طين جسدك

وأنينه منشارٌ يحز سويداء قلبك!

الوطن أمٌ تأبى أن تفطمك

وأنت ترضع منها للأبد!

كذلك هي الكتابة أيضًا؛ الوطن والكتابة يشبهان بعضهما، وأن تكتب يعني أن تنتمي أكثر...

كرم عبد الهادي

20 نوفمبر 2014

انتقام

(1)

- ألو.. ماما.. بابا مريض، اسمعي..

- طب وأنا مالي يمرض ولا إن شالله يموت، إن شالله ما يكونش بس واخد نزلة برد يا ضنايا! وبتتصل بيا عشان كده!

- ماما.. بابا هيعمل عملية خطيرة ! إنتي ما بترديش على تليفوناتنا من فترة، أنا بكلمك عشان..

- إيه؟ فاجئتني! عملية إيه طيب؟ محتاجين فلوس؟
- أيوا بصي..

"الرقم الذي طلبته غير متاح حاليا من فضلك حاول الاتصال في وقت لاحق!"

كان لا بد له أن يلعن شبكات الهواتف المحمولة، وأصحاب شركاتها، والعاملين فيها هذا الصباح!

(2)

التاسعة صباحًا، ساعة الشعب المصري في الذهاب متأخرًا إلى العمل! حظها العاثر أوقعها بين مقعدين، في ترتيب ركوب الميكروباص، كلاهما لأصحاب الشنب !

الواحدة ظهرًا، ساعة الذروة، والتزويغ مبكرًا من العمل! من منطقة "م" إلى "ز" ينطلق أوتوبيس النقل العام. لم تتمكن من اللحاق بكرسي. لديها مشوار صغير ستقوم به أولاً. في منتصف المسافة، سوف تنزل عند منطقة "ج" لشراء بعض الحاجيات. تقف وسط "العجقة " قريبة من باب النزول، تنفخ متأففة بحنق مكتوم، تتلفت وراءها عدة مرات، تقول للشخص الذي يقف خلفها مباشرة: من فضلك، ارجع ورا شوية! تجز على أسنانها من الغيظ، ويحمر وجهها من الخجل.

(3)

الميكروباص سيمضي من "ج" عائدًا إلى "م" ليقوم بتحميل دفعة جديدة من الكتل البشرية! الساعة الآن الثالثة عصرًا. يخترق صوته القلق "عجقة" الميكروباص: ألو.. ماما..

"الرقم الذي طلبته غير متاح حاليا من فضلك حاول الاتصال في وقت لاحق!"

سارحًا في همومه، مال عليها قليلاً شاعرًا بالتعب، دون أن ينتبه. مطبات الطريق وانحناءاته تهز الواقفين رغمًا عنهم . التفتت إليه فجأة بعينين تقدحان شررًا، تحسست بحركة سريعة شيئًا في أعلى طرحتها، اقتربت منه أكثر. بقبضة قوية خلسة، غرسته كليًا في موضع عورته، وتحركت مسرعةً بالنزول!

العائلة

سحبت الآنسة عائشة كرسي المكتب وفكرت: أنا لا أستطيع الدراسة على مكتب، لا يمكنني أن أقرأ أو أكتب إلا فوق سريري، ولكن هذه عادة سيئة، ليس جيدًا لصحتي. وفكرت أنها مرهقة، أنا مريضة ولا بد لي من زيارة الطبيب، هذه المهزلة يجب أن تنتهي! لكنها تراجعت عن قرارها فورًا؛ فكرت الآنسة عائشة: لا، لستُ مريضةً أبدًا، أنا واهمة، هذا الوهم يجب أن ينتهي! وشعرت بالذنب، لأنها تُحمل نفسها فوق طاقتها؛ تريد أن تعتقد أنها ليست مريضة، وتقنع نفسها بذلك، رغم أنها تشكو من التعب دائمًا. تاه عقلها للحظات، وتشتت تركيزها ثم فكرت فجأة وهي تكتب:

في طفولتي، كانت العائلة تجتمع بكل وحداتها الصغيرة مساء كل خميس في البيت الكبير، يتناولون العشاء ثم يثرثرون كثيرًا ويضحكون، هناك خفة ظل وراثي في عائلتنا. في الأيام الأخيرة وعندما أصبحت أراهم في لحظات نادرة، خاطفة وقصيرة؛ كان الوقت يمر ببطء، وكنت أشعر بأن دمهم ثقيل!

في أواخر التسعينات، تُوفي جدي، لم أكن هناك، كنت لا زلت صغيرة في بلد آخر، كبرتُ قليلاً وجئت. في ذاك الوقت، كانت العائلة تجتمع أيام الأعياد؛ عيدي الفطر والأضحى وعيد الربيع، ويومين إضافيين في السنة تحت رعاية الجدة، ويومين أخيرين للمناسبات السعيدة إن وُجدت . بعد سنتين تم شطب يومي الجدة من القائمة، وبعد ثلاث سنوات تم شطب عيد الربيع، بعد سنة أخرى تم شطب عيد الأضحى.

تبقى اليوم عيد الفطر وقد تقلصت مدته إلى نصف ساعة من أول يوم، وبالنسبة ليوم المناسبات...آه! لا زالت العائلة موجودة رغم كل شيء، إنها تتواجد يومًا أو يومين في السنة على أكثر تقدير وبشكل جزئي فلا يمكنني أن أراها كاملة أبدًا، لكني أدرك جيدًا أنّ مصيرها معروف ومحتوم.

أجلس الآن، وأضع كفي فوق وجنتي في انتظار أن تصبح العائلة أثرًا بعد عين خلال سنوات قليلة. وأدرك أنّ عقدها لم ينفرط لأنّ جدي توفي في التسعينات فقط، وليس لأنّ الوحدات الصغيرة كبرت وتفرعت عنها وحدات أخرى، لكن وهذا هو السبب المهم والجوهري، لأننا تجاوزنا سنة 2000!

عابر على الجميع

عندما سيأتيني، لن أسارع بإغلاق النافذة أو أحكم إغلاق الباب، لأنه يتسلل عبر أي شيء، وباستطاعته اختراق جميع الحواجز، في أي وقت وأي مكان.

في وقتٍ من أوقات التظاهرات في البلاد عندما كان... يذهب إلى... ليتظاهر سلميًا؛ فكرتُ أنه من الممكن ألا يعود. تأملتُ بحزن وكتبتُ هذا المقطع:

" في كل مرة يأتي ويغيب، يتملكها رعب ألا تراه ثانية، أن تكون هذه هي المرة الأخيرة ثم يتوارى كقرص شمس عند الغروب، يسقط وحيدًا وسط غيوم السماء. الكوابيس المقلقة التي قد تمتلئ بها حياتنا، ومع ذلك نواصلها متعالين على كل قلقنا ومخاوفنا، متناسين أنها قد تتحقق يومًا، وذات قدر سيء قد تحمل لنا الحياة أخبارًا سيئة، لكننا لا نبالي ما دام أن اهتمامنا وانتباهنا لن يؤجل حدوثها في شيء إذا كان مقدرًا لها أن تقع. أيامنا بسمات نسرقها من الحياة. نجري خلف الفرح ونطارده قبل أن تلحق بنا دمعة. أنفاسنا لاهثة وأعصابنا متوترة، لكننا نكثر من الضحك لنخفي خيبتنا ونتجنب شفقة الآخرين علينا. نرتدي قناع العيش بينما نحن نموت في الداخل، وداخلنا حقائق لا يساوي عددها وحجمها إلا مرات انعكاسها على مرآة التزييف الخاصة بنا."

وشعرتُ بالقهر، لأني لا أستطيع أن أكتب اسم المكان ولا اسم الشخص، لأنّ السلطة الفاشية والمجتمع كله الذي أصبح في معظمه فاشيًا - بسبب تمجيده للفاشيين- لن يرحمنا!

عندما مات جدي لأبي كان أول خبر عن الموت تلقيته في حياتي. لسببٍ لم أفهمه حتى الآن، شرعتُ أضحك ببلاهة كرد فعل على الخبر، وكل ما كنت أخشاه هو أن ينتبه أحد أفراد الأسرة لضحكي. كان عمري وقت ذاك ثماني سنوات تقريبًا.. وبعد ذلك بسنوات طويلة، عندما عدنا لمسقط الرأس، هناك حيث كان جدي، كنت أبكي بحرقة كلما نظرت إلى صورته المعلقة على الجدار في غرفة جدتي.

وحتى الآن، ومع أن هذه الحالة قد خفت مع الزمن؛ يمكنني أن أبكي إذا وقفت قليلاً وتأملت أمام الصورة المحاطة بالبرواز. وفي لحظات كثيرة، فكرتُ أني وحيدة بلا جد، وأنّ حياتي كانت ستكون أفضل لو كان جدي على قيد الحياة.

في ذاك الزمن البعيد، عندما كنت صغيرة ومات جدي ونحن في بلادٍ أخرى، لم أكن أشعر بحاجتي إليه، بعد ذلك، وخصوصًا في مرحلة المراهقة أصبحت أشعر بفراغ كبير، وحتى بعد بلوغي سن الرشد، كانت تقفز إلى ذهني أحيانًا هذه الفكرة فجأة: ماذا لو كان جدي ما زال على قيد الحياة، أية حياة كانت ستكون أفضل لا أعرف لماذا، وأي فراغ كان سيمتلئ في حياتي؟!

بعد موت جدي بسنوات، كنت أسأل جدتي وأكرر السؤال: كيف مات ؟ بين فترةٍ وأخرى، لتعيد سرد الحكاية على مسامعي، لكني توقفت عن طرح السؤال منذ مدة طويلة. تحكي جدتي لأبي: كان زي الفل! وكان الوقت ضحى، تمدد على السرير، وتناول "قرصتين" عجنتهما له في الصباح، قال: أشعر بنغزة في قلبي، وذهبتُ لإحضار شربة ماء، لم يكن يتحرك!

لن تنسى الجدة أن تؤكد واقعة أن صديقة للعائلة لم تستطع تصديق النبأ لفترة، ظلت المرأة تقول بإصرار عجيب: "إزاي يا ناس؟ ده كان لسه مكلمني بليل في التليفون وقال لي: تعالي بكرة العصر!"

ليس ثمة شيء مثير أو غير عادي في الحكاية؛ حكاية عادية، تحدث في أحسن العائلات! تكاد تكون شائعة ومبتذلة! جد يشعر بوخزة في قلبه، وجدة تحضر شربة ماء. ما الجديد؟! شعرت بالملل عندما تذكرتها.

بعد ذلك تخللت بعض الميتات، والتي لم يكن لها تأثير كبير، لكنها كانت حزينة في وقتها حياتي. عندما كنت في المرحلة الثانوية توفيت زميلة لي في حادث سير، كان أمرًا مؤسفًا جدًا، تضايقت أكثر، لأنها كانت تحاول التقرب مني في أيامها الأخيرة، لكني أبديت بعض اللامبالاة بالأمر. لم أكن أهتم، ولم أكن أعرف أن الموت سوف يأخذها! رأيت شبح جثتها يمر عبر عربة الإسعاف التي جاءت محملة بالبقايا! لا أستطيع تذكر ميتات أخرى من هذا النوع، وأنا أكتب الآن.

بعد ذلك بعشر سنوات تقريبًا، توفي أستاذ لنا في الجامعة، شعرت بحزن كبير، وحسرة حقيقية. قلت في سري وشرعت أعدهم على أصابعي: "من آخر الدكاترة المحترمين". أزعجني أني لم أكن رأيته قبل وفاته إلا منذ سنة أو بضعة شهور طويلة، قررت أنّ حظي عاثر، لأني لم أره قرب الوفاة. جلستُ أحسب الأمراض التي يعاني منها أستاذ آخر وشعرت بالقلق حين توجست أن الدور قد يكون عليه في المرة القادمة.

فكرتُ في جدتي لأمي، المريضة هي الأخرى، وشعرتُ بالذنب. أنبتُ نفسي، لأني أتكاسل حتى الآن عن تسجيل حكايات الماضي المثيرة التي ترويها عن أجدادها. اعتقدت دائمًا أن هذه الحكايات مهمة، وكنت أشعر أن واجب حفظها للأجيال القادمة يقع على عاتقي وحدي. لقد حكت جدتي حكاياتها أكثر من مرة، لكني لم أكن أهتم بتسجيلها وقتها. وفيما بعد، عندما راودتني الفكرة؛ تقاعست مرارًا عن التنفيذ، وضيعت فرصًا كثيرة.

بخجل ضعيف، وتافه، وغير مبرر! كنت أخجل أن أقول لها: هيا يا جدة.. أعيدي سرد حكاياتكِ القديمة التي سردتِها قبل ذلك؛ لأني لم أعد أتذكرها، ولأني أرغب في تسجيلها، هه، ماذا أيضًا؟ أأقول: ولأني أخشى أن تموتي قبل أن أفعل ذلك؟!

تقول الأسطورة الشعبية: أنّ الطيبين هم من يذهبون "الطيبين هما اللي بيروحوا"، لكنّ الحقيقة أن الأشرار أيضًا يذهبون.

أيها السَّام: من ستترك لنا؟!

استشارة سرية

في عمر الرابعة عشرة، كنت قادمة من طفولة قضيتها في بلدٍ خليجي، بعيدًا عن الزحام والضوضاء. كانت الأخصائية النفسية تنظر إلى ورقتي وكأنما قد وُجهت لها إهانة شخصية! سرعان ما ارتسمت ملامح الغيظ على وجهها، وشرعت تنهرني -أنا الفتاة المجهولة التي بعثت باستشارتها السرية – بشدة. بأسلوب شبيه بالسخرية، لا يخلو من التأنيب، وعرفت بحدسي أنّ هذه الأخصائية مريضة وبحاجة إلى علاجٍ نفسي. قالت أني لن أغير الكون، ومن تظنين نفسك ؟! وأني فتاة غير طبيعية، و...!

بينما اكتسبت وداد تعاطف الجميع؛ لأنّ أبويها منفصلان، أصبحت أنا مسخرة الفصل كله، لأني شكوتُ من الزحام، والضوضاء، وتلوث البيئة الذي لم أتعود عليه. انتشر الغمز واللمز، وانهالت عليّ الأسئلة من جميع الجهات:

«يسرا، هل أنتِ من بعث بهذه الورقة؟» «هيا.. قولي الحقيقة.» «ولكني متأكدة أنكِ من بعث بها.» «هيه، أنتِ صاحبة هذه الاستشارة؟» الجميع الذين كانوا يعرفون أنني سوف أصرخ عندما يشتد الضجيج في الفصل، كانوا يسألونني رغم أنهم يعرفون، ويلحون في السؤال، رغبةً في تلقي اعترافٍ صريح مني بذلك، لم أقدمه لهن. فلا يكفي أن يعرفن هذا بأنفسهن فقط، بل عليَّ أن أقوله بنفسي؛ لا بد أن يخرج من فمي كي يستمتعوا به!

كان عدد الأوراق محدودًا، وقد وشت بوداد صديقتها المقربة. قالت الأخصائية: طيب يا بنات، دق الجرس، من لديه أي استشارة سرية أخرى فليكتبها لي في المرة القادمة، دون أن يذيلها باسمه، كما عودتكن!

العملية

أنا ميت، وأنا الآن عند الله، ولا يمكنني أن أخبرك بأكثر من ذلك، لأنّ هذه أسرار علوية! أما كيف مِت؟ فهذا سرٌ أرضي لا مانع من البوح به. سأقول لك: باستطاعة الوجع العميق وحده أن يصنع منك وحشًا يقتل الأطفال. عندما كنتُ أذرع ممر مقر الحركة جيئة وذهابًا في صباح يوم خميس مشئوم، كنت أفكر في مدى أخلاقية الأمر، فكرتُ أني بلا ضمير، لكنهم يستحقون ذلك.

تواردت على مخيلتي صور كثيرة، من عهد النبوة والخلافة الراشدة، وما كان المسلمون عليه، وما أمروا به في غزواتهم. قفزت إلى ذهني هذه الكلمات بوضوح، وظل صداها يتردد في أذني" لا تقتلوا صبياً، ولا امرأة، ولا شيخاً كبيرًا، ولا مريضًا ولا راهبًا، ولا تقطعوا مثمرًا، ولا تخربوا عامرًا، ولا تذبحوا بعيرًا ولا بقرة إلا لمأكل، ولا تغرقوا نحلاً، ولا تحرقوه."

وحاولتُ أن أبرر لنفسي الأمر: هؤلاء الأطفال سوف يكبرون يومًا ما، وسوف يتحولون لقتلة محتلين غاصبين، ولهذا لا بد من إفنائهم صغارًا، اليوم قبل الغد. ولم أقتنع كثيرًا، لكني رددت لنفسي: سنتغدى بهم قبل أن يتعشوا بنا.. نعم.. سوف أفعل!

بت ليلتي في مقر الحركة، وفي الصباح، انطلقت لمهمتي الفدائية! وفكرت: "انطلقوا باسم الله، لا تقتلوا شيخاً فانيًا، ولا طفلاً صغيرًا، ولا امرأة، ولا تغلوا، وضموا غنائمكم، وأصلحوا وأحسنوا، إن الله يحب المحسنين." وقلت لنفسي: هذا صباح جمعة مباركة. وقلت: من يتوكل على الله فهو حسبه! وقلت: على بركة الله! وتذكرت الوصيةَ المسجلة التي تركتها لأمي وأبناء شعبي، بعد ساعات قليلة سيزفون خبر شهادتي وسيبتهجون به. تخيلت دموع أمي، وتوقعت أن تكون الجنازة مهيبة.

لا أدري لماذا انثالت على عقلي في الطريق ذكرياتي مع أفراد أسرتي فردًا فردًا، والمصير الذي انتهى إليه كلٌ منهم.

محمود الصغير؛ ها هو في المعتقل منذ تسع سنوات، كان طفلاً عندما اعتقلوه، لم يكن يتجاوز الثانية عشرة. أخي الأكبر عماد؛ استشهد في غارة غاشمة. وأبي مفقود، لا نعرف مصيرًا له. أختي سلوى، أصيبت بعاهة مستديمة في غارةٍ أخرى، وتخلى عنها زوجها الكلب عميل الاحتلال، لا أعرف كيف زوجناها لهذا النكرة الحقير؟!، لم نكن نعلم، حسنٌ أنهم قد شنقوه مؤخرًا في الحركة. وآخر العنقود أخي محمد؛ قتلوه في السابعة من عمره برصاصة صهيونية متعمدة. وأمي.. أعرف جيدًا أنها سوف تموت بحسرتها. وفكرت: هذا حال أسرتنا وحدها، وهو لن يختلف كثيرًا عن حال أسرة عمي مشعل أو عمي ناصر أو أسر عائلتنا كلها.

تجاوزت الحاجز اللعين بصعوبة، وبمعية هذا الجواز الأجنبي، قلت: جيد أني أحمل جنسية أمريكية مزورة. تجاوزت الحاجز الذي تلاه وفكرت: حسنٌ أني أحمل هوية مزيفة لصحفي أوروبي. ثم استقللت شاحنةً بعد ذلك، وجدتها في طريقي مصادفة، وأقنعت السائق أني أنوي عمل ريبورتاج صحفي مع أطفال المدرسة لاستقصاء مشاعرهم أيام الحرب.

وقلت في سري: هذه ليست حربًا وليست صراعًا بين طرفين. هذه قضية واضحة؛ جانٍ ومجني عليه، محتل وصاحب أرض، مجرم وضحية. وفكرت: هذا دفاعٌ عن الأرض، هذه مقاومة مشروعة، هذا استرداد للحق. وفكرتُ فجأة: ما ذنب الأطفال؟ لا أدري لماذا عندما وقفت عند باب المدرسة، تذكرت العرب جميعًا ووددت أن ألعنهم شخصًا شخصًا، لو أني أعرف أسماءهم فقط، لوقفت هناك ولعنتهم قاطبة، واحدًا تلو الآخر؛ من أصحاب حرف الألف إلى أصحاب حرف الياء، ومن الحاكم للمواطن، ومن أكبر رأس إلى أصغر رأس.

آخر ما فكرت فيه قبل أن يسمح لي حارس البوابة بالدخول هو النتائج الطيبة، والأثر الفعال، الذي سوف تتركه الواقعة في مسار القضية. سيعلمُ هؤلاء الأوغادِ جيدًا أنّ لدينا مواهب مماثلة، وباستطاعتنا أن نغدو وحوشًا أيضًا متى أردنا ذلك. أتخيلُ الواحد منهم، وهو يشاهد هذا الخبر في التلفاز ، ويكاد يبول في سرواله من الرعب. جبناءٌ دائمًا، قردة، خنازير، وسوف تضطرهم هذه العملية وعمليات مماثلة إلى الرضوخ قليلاً لشروطنا.

وفكرت مع ذلك: هؤلاء الأوغاد لا يرضخون أمام أي شيء، الشياطين نفسها لا تقدر عليهم، ولا يمكن أن تنافسهم في وقاحتهم وعنجهيتهم، وفي ضربهم لكل العهود والاتفاقيات بعرض الحائط.

لحسن الحظ، ضُرب جرس الفسحة، واندفعت جموع الأطفال خارجةً من الفصول، وتوقف عقلي عن التفكير. مددت يدي تحت سترتي عند بطني وضغطتُ أخيرًا هذا الزر، دق قلبي بسرعة، وفي اللحظة التي تبقت فيها ثانية واحدة، عرفتُ أني أرغب حقًا في الانسحاب، ولكن، لم يسعفني الوقت!

الأرنب

كان عليّ، أنا المصابة بفوبيا من جميع أنواع الحيوانات والكائنات غير البشرية، أن أتولى مهمة استدراج الأرنب، كي تمسك به أمي وتذبحه. كان الأرنبُ الذي أصبح صديقي في فترة وجيزة، وتوطدت علاقتي به على نحو مفاجئ وعميق، يثق بي كثيرًا. ولهذا كنت أستدرجه من تحت كومة المواسير العظيمة، التي كانت موجودة في فناء منزلنا لا أتذكر الآن لمَ.

لأطعمه الجزر، وأحيانًا لتمسك به أمي، وتحبسه في ركنٍ صغير، لا أتذكر ملامح بنيانه الآن. هل كان قفصًا أو عشة مهترئة يستطيع بشغبه القفز منها؟ لست أدري. . على أية حال فلم يصدق أحد أن الأرنب قد قبلني، قالت أمي أنني كنت أتوهم، الأرانب لا تعرف القبلات! وأمرتني باستدراجه فورًا لذبحه هذه المرة.

كنت حزينة؛ لأني خنتُ صديقي مرارًا، لم يعد يثق بي مؤخرًا، أصبحتُ أستدرجه بصعوبة، وأصبحت نظرة عينيه حزينة، تشي بالشك واللوم الجارح. ولكن هذه المرة هي القاضية.

كان يحب الحرية والانطلاق في فضاء الفناء، يكره الحبس ولم يكن يعرف ما الذي ينتظر جثمانه من سوء غدًا في قِدر الطبخ. جاء أرنبي الأسود الجريء مع أرنبة بيضاء كانت عكسه تمامًا، ترتعب لأقل سبب، وتفضل الحبسة. من المرجح أنها كانت حاملاً، آه، في الحقيقة؛ هذا ما اكتشفناه عندما ذبحناها. وُضعت طواجن الملوخية على الطاولة، لكني لم أتذوق أرنبي .

الواقعة الأخيرة في سيرة أبي ديك الهلالي

كان ذلك في أحد أيام شهر أغسطس الساطعة، عندما كانت الجنازة المهيبة التي تخيلتُها، لا شك تشقُ عالم الحظيرة الآن! كانت توسلات الديك أسخف من المعتاد في مثل تلك المواقف! لا شك أنه لم يتوسل كأب، يرغب في تمضية بقية حياته في تربية صيصانه الصغيرة. وبدلاً من ذلك، رفع رقبته في شمم، ومد عرفه أكثر، ومطه للأعلى . حتى أنه رفض بوقاحة أن يموت عندما أخذ يتمايل مزهوًا، ويترنح يمينًا ويسارًا كزائر زار لأكثر من نصف ساعة خلسة عن الأعين.

ملوثي الأيدي بالدماء نزلنا إلى الأسفل، قالت ماما بعدما فرغت من بعض الأشغال: اذهبي وأحضري الديك الذي ذبحناه. كانت رقبته مسلوخة حقًا في جزء منها، بل إنّ عروقه كانت ظاهرة، وكان ينزف دماءً كثيرة. رغم ذلك، فقد كان يتجول في السطح على مهل، وبرشاقة مترنحة قليلاً، لكن خطواتها ثابتة وكبيرة يبدو أن شعلتها لن تنطفئ، وكأنه يقول لك: أنه لن يموت أبدًا ! كان شامخًا، وحزرت أنه سيعيش حقًا طويلاً جدًا، لو أننا فقط ضمدنا جرح رقبته. كان منظره مهولاً، كأنه قد بُعث إلى الحياة من جديد! كيف استطاع هذا الديك أن يصمد هكذا، وأن ينتفض، رغم أننا قد رأيناه مرميًا على الأرض قبل أن نتركه غارقًا في دمائه؟ لو كان يخدعنا فحسابه عسير؛ لأنه سوف يقضى نحبه الآن.

"ماما.. ماما" ناديت بصوتٍ عالٍ مذعورة. صعدت إليّ وهالها المشهد، بقينا مذهولتين للحظات. إنه يتمشى، ويتبختر، رغم دمائه في أرجاء السطح. إنه يقف على رجليه رغم كل شيء. ها هو يتقدم أكثر، ويستجمع قواه عندما رآنا، فيذرع المكان جيئة وذهابًا، ويدور حولنا كأنه لا يخشانا، ها هو ينظر بتحدٍ، نظرةً لن أنساها في حياتي كلها !

لو أنه كان إنسانًا لربما أخرج من جيبه سيجارًا أيضًا، وشرع في التدخين بتلذذ، يا له من منظر! قلت لنفسي وقتها: هذا الديك الأسطورة، يستحق أن أكتب عنه قصة! سأروي فيها بالتفصيل وقائع جنازته التي تخيلتها آنذاك بوضوح وتأثر عميق. سأحكي كيف ستنوح الدجاجات، وتولول الصيصان الصغيرة؟ وكيف سيرتدون جميعًا ثياب الحداد على هذا الزعيم العظيم الشجاع؟ وكيف ستكون مراسم التشييع!

إنه أسطورتهم الخاصة، مثلما أنّ لنا نحن البشر أساطيرنا أيضًا. "هاتي السكينة بسرعة". قالتها أمي على عجل .وتآمرنا عليه بالالتفاف حوله على حذر ،كأننا نقترب من مجرم خطير أو قطة خارقة بسبعِ أرواح، يمكنها أن تحمل نبوءة شريرة.

دققت أمي النظر، وأخيرًا انتهنا إلى السر. هناك عرقٌ مقطوع وآخر سليم في رقبته. ولكنه شيء لا يصدق! كيف له أن ينهض هكذا رغم وجود عرق مقطوع في رقبته؟! قالت ماما: هذا العرق أسمك من الآخر. وفي ثوانٍ، سيحت دمه.

وقفت أمام اللوحةِ متأملة، وتذكرت أبا ديك الهلالي، الذي عاش فوق سطحنا فقط، نحن وحدنا، ولم يعش في أي مكانٍ آخر. يا له من شرف وفخر! عندما انتشلتني أصوات المعجبين بلوحة المدخن من ذكريات طفولتي البعيدة.

من قتل سعيد مسعود؟

"الأوغاد المتوحشون يقومون بتعذيب الكلاب!" هكذا سوف يُقال عن سمعة قريتنا التي سوف تذبل عندما يعلم الجميع بالأمر، وسيلحق بها عارٌ لن ينمحي.

هذا هو ما فكر فيه الشاب سعيد مسعود عندما تراجع وفي داخله شعور عميق بالمرارة عن الاستجابة لنداء

"call me Immediately!" ، تذكر كيف كان متحمسًا وبائسًا منذ سنوات للاتصال منذ شهر بهؤلاء "الملاويث!" على الإنترنت قضّى يومينِ من البحث. وبصعوبة، استطاع العثور على بعض الجمعيات النادرة.

لكم قال لنفسه في كل مرة قبل أن يصل إلى هذه المرحلة: سوف أخرج وألعن هؤلاء الشياطين بنفسي. ولكنهم كانوا يظهرون ويختفون بصورة عجيبة! وهذا ما جعله يتردد في النهاية عن تلبية النداء. "سوف يأتون ثم لا يجدون أثرًا، ولن ينوب قريتنا إلا الفضيحة" وفجأة، انفجرت الضحكات العالية من فمه في تتابع غريب، لقد دخل في حالة قهقهة مزمنة!

إنه منذ الآن حتى يوم القيامة سوف يظلُ يضحك على خيبتِه وسذاجتِه في ذلك الوقت! يندهش كلما تذكر كيف كان يتصور أن العار سوف يلحق بالقرية بسبب تعذيب الكلاب، ولكن تعذيب "البني آدمين" في مصر كلها، وليس قريته الصغيرة فقط، لا يسأل عنه أحد ولا يُشعر أحدًا بالعار.

لكم كان بريئًا وطاهرًا عندما فكر في ذلك، وتملأ قلبه عاطفة رحيمة تجاه الحيوانات. كم كان يشمئز، لأنّ معظم الناس يحتقرون هذه الفكرة، "لماذا لا يؤمنون بأهمية الرفق بالحيوان مثلما يؤمنون بأهمية الرفق بهم،

ألسنا كلنا كائنات؟" وانفجر ضاحكًا أكثر، سعيد مسعود قد يموت من كثرة الضحك.

إنّ قلوبهم ميتة وقاسية تجاه الكائنات الأخرى، لأنّ فاقد الشيء لا يعطيه، والشعب المصري لم يجد من يحنو عليه. سعيد مسعود سوف تنفجر حنجرته من شدة الضحك بعد أن سقط مستلقيًا على ظهره.

تذكر عنوان الإيميل الذي أرسله"أرجوكم، سارعوا بإنقاذ الكلاب المسكينة" الأطفال في قرية س، واقشعر بدنه عندما تذكر أنهم أطفال، يحبسون الكلاب في منزلٍ مهجور، توجد أشياء فظيعة، وتقطيع للآذان. تحدث أشياء رهيبة، وتقطيع للذيول. أرجوكم تعالوا بسرعة! إنهم يسكبون الماء المغلي فوق رؤوسهم، كلابُ قريتنا مصابون بعاهات مستديمة، أرجوكم تعالوا. سعيد مسعود يفكر، لو كان للإنسان ذيلاً لقطعوه في المعتقلات المصرية، ولما اكتفوا بوضع زجاجة في...، سعيد مسعود ينقبض قلبه من كثرة الضحك، بل إنه يبكي فجأة، وتتراخى يداه..

" Call me Immediately على.....

عناوين صحف:

اغتيال سعيد مسعود بواسطة غاز الضحك

سعيد يرسل رسالة لجمعية الرفق بالحيوان قبيل وفاته

خبراء الطب الشرعي: سعيد مات موتة طبيعية في حادث ضحك هستيري

محمود غزالة: عملاء النظام تآمروا على قتل سعيد مسعود بعد خروجه من المعتقل

بعد عبّارات وقطارات الموت.. الضحك أحدث طريقة مبتكرة للموت في مصر

الموت غمًا من الضحك

الحقوقي

7نوفمبر 2014

عزيزي زياد

يؤسفني أن أكتب إليك لأخبرك بهذه الحقيقة.

أنا حمار! حتى أني أتناول حزمة من البرسيم في الصباح، وحزمة ثانية قبل أن أنام! إن أحدهم يجادلني منذ أسبوع حول قضية ريحانة جباري، ينعتني بأني بشري مُقطعن، لأني لم أكن القاضي الذي حكم، ولم أطلع على الأدلة مثله بنفسي! ألم أقل لك أني حمار؟ ويجوز أن أكون قد أخطأت التشبيه، إذ ربما كنت تيسًا، كبيرًا وخطيرًا!

عزيزي زياد

إنهم يجلسون الآن في انتظار أن تصيبهم مصيبة مماثلة حتى يصدقوا ما يجري، ويشعروا بآلام غيرهم! معتقلاتنا أحسن معتقلات في العالم! والسجون المصرية ليس فيها معتقلون سياسيًا، ولا تعذيب، ولا انتهاك للأعراض، لأننا لم تكن لنا تجارب شخصية في دخول المعتقلات. وحتى يحدث ذلك، فما يقال عن فساد الداخلية، وانتهاكها لحقوق الإنسان هو مجرد أوهام! حتى أنّ الأعمال الفنية التي ناقشتها لا بد قد استوحت هذا من

الخيال الخالص للمؤلفين! إنّ رجال مبارك كما تعلم يحصلون على البراءات تلو الأخرى. ولم يرتكبوا أي ذنبٍ في حياتهم، لأن القضاء الطاهر الشريف العفيف قد شهد لهم بذلك. أما شهادة شعبٍ بأكمله على ثلاثين عامًا من الظلم والفساد فليست لها أية أهمية!

ثقتي في القضاء أكثر من ثقتي في عينيّ هاتين، وإحساسي بما يدور حولي. كأنّ جميع القضاة في مصر والعالم، ليسوا بشرًا بل ملائكة. وهم معصومون من الخطأ، والذنوب، وظلم الناس. بينما أنا ابن الكلب الوحيد! حضرة المواطن، المسئول والمذنب، والوغد، والمخطئ دائمًا! أنا الكذاب، لأنّ القضاة لا يمكن أن يكذبوا أبدًا! هذه هي النظرية، والحجة المستخدمة دائمًا لدحض أهمية المبالاة بحقوق الإنسان عندهم. عفوًا من فضلكم، لا أصدق، فهذا لم يحدث لي شخصيًا! إنّ هذا الذي تتحدثون عنه أيها السادة لا وجود له على الإطلاق!

لقد شرع في إثبات ما قلته له حالاً، فجادلني حول نزاهة داخليتنا العظيمة! وقيامها بشرف بأداء الواجب على أكمل وجهٍ ممكن! ريحانة جباري ممثلة قديرة!

هل تعلم ماذا يعمل هذا الشخص؟ إنه مواطن عادي، لا يعمل في وظيفة مهمة، ولا تربطه أية علاقة بالفئات الآمنة إلى يوم الدين !

لا أعتقد أنّ هناك قطعنة للبشر أكثر من إلغاء إنسانيتهم، وجعلهم يفقدون الثقة، والقدرة على استخدام عقولهم وبصيرتهم، في تقييم أي شيء مما يجري حولهم، واستنباط الحقيقة منه. هذه هي القطعنة الحقيقية.

أنا معادٍ للسامية، لأني أدافع عن حقوق شعب اغتصبت أرضه وحقوقه، ولكن لا تتسرع يا عزيزي رغم ذلك في الحكم على وطنيتي، وعروبتي، وسلامة نيتي!

فأنا خائن وعميل! حتى أني أدافع عن حق الأطفال الإسرائيليين في الحياة ! لأني أعتقد أن أطفال العالم جميعًا متساوون، أراهم كائناتٍ بريئة، مجرد ضحايا لشرور الكبار وأفكارهم المسمومة!

بالأمس ارتكبت إثمًا عظيمًا، عندما قررت فضح ممارسات ضد الإنسانية بحق شخصين، تأكدتُ منها.

بالأمس فقط، قاموا بسبي على الفضائيات، واتهموني بأني أنتمي إلى التنظيم الدولي لجماعة الإخوان المسلمين المحظورة رغم ليبراليتي! أنا ممنوع من السفر، وأعاني من صعوبة في الحركة!

وعندما أمشي في الشارع، سيتجمهرون حولي بحيث لن أضمن سلامتي!

أنا شخص غبي وكافر! لأني عندما أحزن على منكوبي بورما وإبادتهم الجماعية، لا أحزن لأنهم مسلمون، ولكن لأنهم بشرٌ مثلي ومثلك، يمتلكون أنوفًا في وجوههم، وأصابع في الأطراف العليا والسفلى!

قلبي الصغير لا يحتمل! يا عزيزي، أنا حقوقي !

18ديسمبر 2014

الأستاذ أحمد المحترم، صديق أسرتنا العزيز، تحية منا إلى مصر الحبيبة، قلب العروبة النابض، ومعقل الأبطال والثوار دائمًا.

أكتب إليك بحروفٍ من أسى. لقد تمكنتُ من السيطرة على أعصابي منذ وقت قصير. لأخبرك بأن زياد مقتول. لا ندري ما حدث له بالضبط! لا أحد يدري، ولكن، أشك في أمرٍ ما ! لأنّ نشاطاته في الفترة الأخيرة قد تجاوزت الأعمال الحقوقية إلى أعمال المقاومة أيضًا. هناك شيء ما يحاك في السر! أشعر بالقلق على عماد أخي زوجي أيضا !

تحياتي لك، وأرجو أن تدعو لنا كثيرًا.

وداد منصور، غزة

ملحوظة صغيرة: لقد وصل خطابك مفتوحًا ومهترئًا قبل أن نقرأه!

رحلة عبد العزيز الستاموني

بين عيادات الأطباء

كانت رحلة عبد العزيز الستاموني بين عيادات الأطباء التي تكللت بكارثة، رحلة خارقة بحق، لم يكن أحد ليصدق أنها ستنتهي بهذه النهاية الرجيمة! ومرد ذلك أنه كان يتردد منذ ثماني سنوات بين العيادات الخاصة، والمشافي، بغية العثور على علاجٍ لكربٍ غامض ألم ببدنه دون جدوى .

وكان الستاموني قد شارك في الاعتصام السياسي الذي عرف باسم اعتصام "روبا" لمدة أسبوع متقطع؛ فلم يكن ذهابه متواصلاً بسبب حالته الصحية الغريبة. وكان الرئيس "شي شي" قد أصدر أوامره بقتل جميع المعتصمين ذات صباح والنشوة تغمره! وتصادف أن كان الستاموني هناك في هذا اليوم بالذات، لكنه أفلت من الموت بأعجوبة !

ومع أنه قد عاد من هناك سليمًا معافى تمامًا، لم يمسه خدشٌ واحد، وهذا في حد ذاته هو أمرٌ خارق وأشبه بمعجزة ! إلا أن صحته المتهالكة قد تدهورت مزيدًا من التدهور منذ ذاك اليوم! ولكن، مهلاً، لنبدأ قصة الستاموني منذ بدايتها!

منذ ما يزيد على السبع سنوات بقليل، كان عبد العزيز الستاموني يغط في نوم عميق هانئًا بنومه ذات ليلة صافية هادئة، إلا أنه ولسوء الحظ قد استيقظ على ألمٍ مباغت ينخر في رقبته. كان الألم فظيعًا، لدرجة أنه قد استغرق وقتًا طويلاً حتى قام من فراشه بصعوبة، لكنه عندما ذهب ليغسل وجهه، ويقضي حاجته كعادة الناس جميعًا في الصباح، كانت صدمته كبيرة عندما نظر لنفسه في المرآة.

كانت رقبة الستاموني ملوية بإحكام تجاه اليمين، وكان يبدو أنها ستثبت على هذا الوضع دون أن تحب تغييره! وهذا ما أصابه بالفزع، ومحاولة تعديل وضعها، إلا أن محاولاته الحثيثة كانت مميتة ومؤلمة للغاية، وهذا ما جعله يتراجع عنها في ثوانٍ معدودة !

وبدلاً من ذلك، شرع يتفحص بإصبعه برفق هذا الجزء المختبئ عن النظر من الرقبة نتيجة ميله الشديد نحو اليمين، كان هناك ما يشبه العجينة تحت الجلد، فقاعة كبيرة متكتلة، ربما كانت تحمل ورمًا أو كمية كبيرة من الصديد اللزج المتصخر !

وهرع الستاموني نحو زوجته الكسولة ليوقظها، ويخبرها بما ألم به. وكانت صدمة الزوجة كبيرة أيضًا من هذا المنظر، إلا أنها نصحت زوجها قائلة: يا زوجي العزيز، ألف سلامة عليك، لكني أرى أنّ هذا هو مجرد شد عضلي رجيم من البرد!، ولا بد من ذهابك إلى أخصائي علاج طبيعي يتقن التعامل مع مثل هذه الحالات.

فأومأ الستاموني برأسه متألمًا، ومضى من فوره إلى هذا الأخصائي، وقد ارتدى ملابسه بصعوبة على عجل.

استمع الأخصائي إلى شكوى الستاموني، ثم بدأ من فوره اللت والعجن، والهرس والدهس، معملاً أصابعه وأجهزته في رقبته، وكلما مرت بضع دقائق كان يوجه له هذا السؤال مزهوًا: هه، كيف حالك الآن؟ أفضل أليس كذلك؟!!

وخُيل للستاموني، لشدة إلحاح هذا الأخصائي بأنّ الأمر قد بات أفضل حقًا، وهكذا مضى شاكرًا غير ساخط إلى بيته.

وقد عزم على الامتثال لنصيحة الأخصائي، وساعدته زوجته في ذلك فملأت أكياسًا صغيره بالمياه الساخنة، ووضعتها على الجزء الملتهب في رقبته، ومضى الأمر على هذا المنوال لساعاتٍ عديدة، لكن الألم لم يكن يخفت أو يتوقف، بل على العكس، ازداد الأمر سوءًا، وتحسس الستاموني مكان الألم مرة أخرى فشعر بأن الكتلة المتورمة قد تمددت بالحرارة ولم تنكمش! وهذا ما جعله يلعن الأخصائي والساعة التي ذهب فيها إليه! وتفتق ذهنه عن فكرة ظنّها مفيدة، فأمر زوجته بأن تُحضر له مكعبات من الثلج، ولكن هذه المكعبات لم تغنِ من الألم شيئًا.

مضت أيام على هذا النحو، ولم يعرف الستاموني إلى أين يذهب! خصوصًا بعد أن أجمع الأصدقاء والأقرباء، القاصي منهم والداني، على أنّ الحالة تستدعي علاجًا طبيعيًا لا شيء آخر، إلا أن هذا العلاج لم يفلح معها. ولم تنجح الدهانات الكثيرة التي لطخ بها رقبته صباحًا ومساءً، في تخفيف شيء من الألم أو كبح جماح مصدره.

غير أنّ أمرا غير متوقع قد حدث للستاموني على حين فجأة، فقد اختفى الألم كله ذات ليلة، هكذا، دفعةً واحدة، واعتدلت رقبته منتصبة في شمم لشد ما تعجب له هو شخصيًا! فحمد الله على كل حال حمدًا كثيرًا مباركًا شاكرًا فضله، ولكن هذه الراحة لم تستمر طويلاً؛ فسرعان ما عادت الرقبة اللعينة إلى ما كانت عليه بعد يوم واحد! الأمر الذي أدهش الستاموني وكدره، وقد اغتمت زوجته كثيرًا، حتى نصحه أحد الأصدقاء بالذهاب إلى طبيب "أنف وأذن وحنجرة"، ولم يُكذب الستاموني نصيحة، فقد كان كالغريق الذي يتعلق بقشة، فانطلق إلى هذا الطبيب وهو يسأل الله من كل قلبه أن يفرج أزمته، ويفك كربه. أخبره الطبيب أنه مصاب بالتهاب في الغدد اللمفاوية من نوع T.

لقد تسارعت الأحداثُ كثيرًا بعد ذلك حتى أنه لم يعد يستطيع أن يلاحق أنفاسه! فبعد شفاء رقبته، أصابته آلام شديدة في البطن، وإرهاق جسدي عظيم، جعله يتخيل كل ليلة أنه سيكون جثة هامدة في الصباح، ورغم ذلك فقد بقي حيًا! وتتالت رحلاته نحو عيادات الأطباء. قال الدكتور شوكت بعد أن طلب بعض التحاليل المهمة: الـ A.S.O عالٍ جدًا، وكذلك سرعة الترسيب، هذا يعني إصابتك بحمى روماتيزمية مؤكدة، إلا أن أعراضها لا تبدو عليك! ونصحه أن يأخذ حقن البنسلين طويل المفعول في الشتاء، ثم يوقفها في الربيع، ثم يأخذها في الصيف، ليتخلى عنها في الخريف!

كان الدكتور عثمان، وهو طبيب قريب للستاموني من جهة أمه، يعلم جيدًا أن الجرعة التي توصف للعلاج من هذا المرض، لا توصف على هذا النحو المتلجلج، وهكذا نصحه بالذهاب إلى طبيبٍ آخر.

قال الدكتور عبد الرحمن عن كلام الدكتور شوكت: كلام فارغ! ثم أنّ هذا التحليل لا يدل بالضرورة على وجود هذه الحمى، وإنما على وجود عدوى بالجسم. وهكذا طلب تحاليل أخرى: حمى بحر متوسط، مرض الذئبة الحمراء، غدة درقية. ولكن دون جدوى.

بعد ذلك، أُصيب الستاموني بجديري مائي، لقد كان جهازه المناعي يتداعى بحق، واستمرت رحلاته للأطباء، لكنه عندما شُفي من الجديري عاودته آلام البطن الحادة، كما انتابته بين الحين والآخر التهابات بولية شديدة. أجرى تحاليل السل، والتيفود، ومرض القطط، وغيرها الكثير. لم يترك تحليلاً على وجه الكرة الطبية، إلا وأجراه دون فائدة؛ وظائف كلى، وظائف كبد، بلى أزرق!

بعد عدة سنوات، ذهب إلى الدكتور علاء، والذي أخذ بدوره يصيح كالمصروع، وهو يضرب كفًا بكف حول حماقة كل الأطباء السابقين الذين

ذهب إليهم الستاموني؛ لقد أخبره بوضوح أن الزائدة الدودية ملتهبة أكثر من اللازم، وأنها ظلت ملتهبة لسنوات حتى تحجرت، وكان من الممكن لولا العناية الإلهية وحدها أن تنفجر في أية لحظة، وأنه بمجرد تخلصه منها، ستنتهي كل معاناته! وهكذا أجرى الستاموني عملية استئصال الزائدة الدودية. هل انتهى الأمر عند هذا الحد؟ كلا، لم ينتهِ!

لقد احتفظ جسد الستاموني بعد ذلك بآلام متفرقة مفاجئة، ووخزات حادة، ودوخة مفرطة، وفقدان مفاجئ للتوازن، وتنميل مع شعور بضعف في الأطراف و... !

كانت كل تحاليل الدم تشير إلى عدم وجود أنيميا أو نقص فيتامينات يؤدي إلى ظهور هذه الأعراض. لقد انتهى الأمر بالستاموني إلى الوصول لعيادة طبيب نفسي بعد أن استنفذ كل المحاولات، وجل حيلته من أموال مع أطباء الباطنة، والكلى، والقلب، والعظام، و...، بعد أن أصيب مؤخرًا بنوبات هلع ليلية. وهذا ما جعله يهرع إلى طبيب نفسي، معتقدًا أن شفاءه سيكون على يديه.

أخبرته الطبيبة اعتماد إذن أنه مصابٌ باضطراب الجسدنة. وهو اضراب نفسي جسدي، يأتي قبل سن الثلاثين، ويستمر لسنوات طويلة، يهرع المريض خلالها إلى كافة الأطباء العضويين، معتقدًا أنّ بجسده علة ما، دون أن تكون هناك علة حقيقية! إلا أن الشعور بالألم، والإرهاق، وبعض الاضطرابات الهضمية والجنسية، وبعض الأعراض العضوية يكون حقيقيًا. ويأتي هذا المرض مصحوبًا أحيانًا باضطراب القلق أو الاكتئاب. وهكذا بدأت في تحليل مرض الستاموني بدقة، متخذة من أعراضه الوسيلة، هل تعاني من صداع؟

... -

كم درجة تعطي لوجود ألم في المعدة: 4،3،2،1؟ وهلم جرا... مجموع الدرجات 19، "الأعراض العضوية بسيطة!" وكتبت له دواءين.

مضى الستاموني ذلك اليوم هائمًا على وجهه يبحث عن هذين الدوائين في جميع الصيدليات. وبعد معاناةٍ عسيرة مع تليفون الطبيبة أخبرته باستبدالهما بآخر.

مساءً، فتح شبكة الإنترنت، كتب اسم الدواء الأخير ليفهم ما هو؟ مضاد للاكتئاب، الأعراض الجانبية بلاوي لا تحتمل، الإدمان يحدث سريعًا ! وقرأ أكثر عن حالته وعلاجها، "في بعض الحالات يعطي الأطباء مضادات الاكتئاب لمرضى الجسدنة، بغية تحسين المزاج وتخفيف الشعور بالإرهاق، إلا أنّ معظم المرضى يتوقفون عنها بسبب أعراضها الجانبية، كما أنّ نتيجتها الشفائية محدودة!" قالت له اعتماد: الأمر بحاجة إلى شهور.

وشعر الستاموني أنه سيفقد عقله تمامًا خصوصًا مع نوبات الهلع المتفرعة عن اضطراب القلق المصاحب للجسدنة، ليس بوسعه أن ينتظر شهورًا! وتذكر فجأة أنه ذهب إلى أطباء كثر، لقد زار تقريبًا جميع التخصصات، إلا أنه لم يذهب إلى طبيب مخ وأعصاب بعد، وهذا ما جعله يأمل أن تكون العلة عضوية من جديد، فيكتب لها دواء وينتهي الأمر!

وهرع من فوره إلى "فريد المنصوري خشب" أشهر طبيب مخ وأعصاب في مدينته. إنّ قصة الستاموني تقترب الآن من نهايتها المريعة! ولكن يجب أن نذكر للدقة والأمانة، أنّ الستاموني بوصفه شابًا مثقفًا، من ثم فقد رفض إلحاحات والدته بالذهاب إلى دجالين، وشيوخ معالجة قرآن، وهلم جرا... لقد كان رجلاً مؤمنًا بالطب والعلم، لا يعتقد في سحر أو حسد.

وكانت سحنته تشبه القرد، إلا أنه وبشكل حقيقي كان في عين أمه غزالاً! وكانت أخلاقه حسنة رغم سحنته القبيحة. ولهذا قالت الأم: يا بني، أنت محسود على جمالك، ودلالك، وحسن أخلاقك!

إنّ عيادة فريد المنصوري تغص بالمرضى، الذين تراوحت مناظرهم بين المرعبة والعادية. فمن رجل تتحرك يداه وقدماه وعيناه حركات لا إرادية مزعجة لعين الرائي، إلى امرأة تولول من ألمٍ حاد في ساقها، إلى أخرى جالسة في هدوء لا تشكو من عرض ظاهر، وإلى آخر تبدو على وجهه أمارات غير طبيعية، وتبدو نظراته هائمة تائهة! شعر الستاموني أنه سليم وسط كل هؤلاء، وأنه لا بد جاء إلى هنا عن طريق الخطأ، وعزم في بعض اللحظات أن يتقهقر إلا أنه تراجع عن عزمه!

وبعد ساعات من الانتظار امتدت إلى قرب منتصف الليل، جاء دوره أخيرًا مع قرب إقفال العيادة. واستقبله خشب بالترحاب، إلا أنه أمطره بعد معرفة الأعراض بوابلٍ لا حد، ولا معنى له من الأسئلة الخاصة:

- مخلص ولا طالب؟

- مخلص من كذا سنة.

- وبتشتغل بقى؟

- لا والله لسه، ما انت عارف يا دكتور ظروف البلد. وقهقه المنصوري دون داعٍ قائلاً: لأ، مش عارف، أنا عايزك أنت تقول لي!

فضحك الستاموني ضحكة قصيرة وقال: أنا عارف ان حضرتك شايف البلد كويسة أو هتبقى كويسة قريب.

كان الستاموني قد لاحظ جيدًا صورة الرئيس "شي شي" الموضوعة بعناية في صالة الاستقبال، فوق بوكيه من الورد البلدي، الذي اكتشفت السيدة الجالسة إلى جواره أن بلديته مزيفة رغم أنه يحمل مظهرها تمامًا! لكنه كان رجلاً عاقلاً، ولهذا رفض أن يذهب عقله بعيدًا، واعتبر أنها فرصة مواتية، لمناقرة خفيفة ممتعة، مع شخص يختلف معه في الفكر. خصوصًا وأنه طبيب "ألصق المهن البشرية بالإنسانية والرحمة فوق وجه الأرض" حسب ما كان يعتقد.

فاسترسل معه في الحديث والمناقشة دون توقف.

- بابا بيشتغل إيه يا عبد العزيز؟

- مهندس.

- مهندس إيه بقى؟

- مهندس مدني.

- وبيشتغل فين بقى؟

- في مشروع...

- طب وقاعد معاكم ولا بيروح ويجي؟

- لا، قاعد معانا.

وشعر للحظة أنه في جلسة تحقيق! وابتسم من هذا الخاطر العبثي الذي خطر له. كان الدكتور خشب يسأل أسئلة كثيرة جدًا لا داعي لأن

تسألها لمريض. ويهتم بالتفاصيل الدقيقة، من يراه على هذه الحالة يظن أنه مصاب بمرض الفضول المطلق!

- طب وانتوا ساكنين فين بقى؟

- في...

ابتسم خشب: آه، وقلت لي بقى كنت بتروح روبا؟!
- مش علطول، أنا ما كنتش قاعد هناك يعني، كنت بروح وآجي.
- آه، ورحت كم مرة على كده؟

- يعني، كذا مرة كده، بتاع ست سبع مرات.

وأخيرًا، قال المنصوري بابتسامة مريبة: يوجد نقص في فيتامين ب12، كما يجدر بك أن تتناول أوميجا3.

وأوجس الستاموني خيفة وهو يخرج من الباب، لقد شعر أنه قد وقع في الفخ! ومضى إلى بيته لا يلوي على اطمئنان، وأخذ يرتعد في فراشه. كان من الممكن أن يرتعد في فراشه حتى الصباح، لكنهم جاؤوا وأخذوه في الفجر، أما بقية الحكاية، فأنتم تعرفونها جيدًا!

المحطم

"دعني ألمع لكَ حذاءك! "

لطفٌ شديدٌ منها، وتواضع غير مسبوق أن تطلب هذا الطلب!

سكرتيرتي الجديدة تناديني في الروحة والجاية "يا مولاي !" وتحضر شمعًا إلى المكتب كل يوم لإشباع ميولها الرومانسية الشديدة! هذا الكائن الأرضي الغنج المتدلل لا يمكن أن يكون إلا ملاكًا!

تثيرني بنظراتها وابتساماتها وحركاتها، لم أعد أحتمل، نحن بشر ولسنا برطمانات للقرفة على أية حال!

سكرتيرتي الجميلة تلهو مثل طفلة، يا لعينيها الوديعتين اللتين تذكرانني بابنتي الصغيرة، تقول بإلحاح طفولي: هيا، ارمِ الورقة أرجوك ارمِها، وسأذهب وأحضرها بسرعة ! تركض في جنون لتلتقط الورقة الساقطة من الدور الرابع، تسقط الورقة قبل أن تلحقها، تأخذها من الأرض، تصعد إليّ وتلح مجددًا، تبدأ في البكاء، أوافق على مضض حين أراها تلهث متعبة رغم استمتاعها، تكرر الطلب خمس مرات. بالكاد أقنعها أن تكف عن هذا العبث الطفولي، تلتصق بي فجأة في شبق متفجر ليست له مقدمات. ألفت نظرها إلى أننا في الشركة، تنتبه في خجل، وبالكاد تنتزع نفسها وتلملم شعث شعرها. يا لعفويتها وجنونها المحبوبين!

آراؤها التحررية، وتلقائيتها وبساطتها الأخاذة، جنبتني وجع رأس الأوراق العرفي. حبيبتي لا تحتاج إلى ورقة، لأنها ترى أن الحب لا يحتاج إلى ورقة تثبته، هو يطفو ويسمو ويرقى عن سطح كل هذه التفاهات! فاجئني فكرها

المتحرر الجميل، عرفتُ كثيرات، ولكن لم أقابل امرأة مثلها، في مثل تحررها وبساطتها، امرأة لا تعقد الدنيا بل تجعلها حلوة سهلة. زوجتي امرأة محافظة ونكدية على طول الخط.

في ليلة حبنا الأولى، أصرت أن نلعب لعبة حلوة...

- اهدأ يا منصور، لماذا تتحدث عنها هكذا ثم تبدأ في البكاء؟ قل الحقيقة، ما تحس به فعلاً، وبهدوء، لا تجبر نفسك، لا تخلط مشاعرك! (مربتًا على كتفه)

تناولت حبة دواء من نوع "..."، أكدت لي أن الليلة يستحيل أن تمضي قبل أن أنفذ لها رغباتها المبدئية، لأنها بحاجة إلى الصفع واللسع! شعرت بالدهشة، وقفت مذهولاً في مكاني أحاول إقناعها مرارًا بالرجوع عن هذه الرغبات الغريبة، لكني فشلت. كانت رغباتي أقوى مني، أردت أن أنتهي من الأمر سريعًا، فعلت ما طلبته بخوف وبعض التقزز، لكن رغباتها لم تتوقف، لقد طلبت أشياءً أخرى، نفذت لها كل ما أرادته وكأني لعبة بين يدي جنونها وعبثها . وغادرتها بمجرد الحصول على ما أردته.

توترت أعصابي للغاية، كرهت نفسي، وكرهت كل شيء، وصلت إلى البيت، تفحصت الأحوال هناك، ضربت ابنتي علقة موت لأسباب لا معنى لها، وضربت زوجتي على مؤخرتها أيضًا. في الصباح، تغيرت معاملتي مع الموظفين، شخطت ونطرت وأهنت الجميع، استشطت غضبًا عندما رأيتها قادمة بهدوء وفي يدها حزمة من الشمع، وعلى وجهها ابتسامة عريضة.

راقبتها لأيام وتأكدت من حقيقة أمرها، اختلست النظر إليها وهي تشعل شمعتين، واحدة لتضعها على المكتب، وأخرى لتغمس أصابعها في لعابها

السائل! لقد كنتُ أكذب، فعندما اقتربت لتلمع حذائي لم يكن لطفًا منها بل كان أمرًا عجيبًا جدًا! مسحت مقدمته بمنديل، واقترب وجهها فجأة، لامس لسانها سطحه لثانية قبل أن أبعد قدمي فورًا، أنبتها ونهرتها على هذا التصرف الغريب، أكدت أنها لم تكن تقصد، وحلفت الأيمان الغليظة أنها تحبني حتى سرح خيالها وهي تلمعه فلم تنتبه لحركاتها !

مثلها الأعلى دائمًا كما كانت تقول لي هو "أمينة" نجيب محفوظ زوجة "سي السيد"، كنت منبهرًا من تواضعها وتفانيها في خدمتي وتوفير وسائل الراحة لي رغم بعض تصرفاتها الغريبة، كانت تعاملني كملك في خضوع ذليل تفسره بأنه خضوع المحبين. قارنت بينها وبين زوجتي، امرأة متسلطة وقوية، لهذا تعلقت بها.

اقتربت مني ونحن في شرفة الدور الرابع، وأصرت أن أعض أذنها، لكني تقززتُ من سخافة الفكرة! خبطت رأسها في كتفي ملحة حتى تبعثرت بعض خصلاتها، توقفت أخيرًا وقالت أنها كانت تمزح، وأن المحبين يجب ألا يتقززوا من عض بعضهم، مثلما يجب ألا يتقززوا من استعمال فرشاة أسنان واحدة، هذا هو الحب! كتمتُ سخطي وأنا أتقزز من الشق الأول بالذات من الفكرة! حملتُ كلامها كله على محمل المزحة الثقيلة وسكت.

لقد أكدت لها أنها بحاجة إلى إجازة طويلة، ملمحًا ألا تعود مرة أخرى، مضيت قرار الإجازة وسط اعتراضها، أخذت حزمة شموعها ومضت. مر أسبوعان عندما بدأتُ في تلقي تهديداتٍ منها، في البداية كانت تهديداتها بسيطة وتتسم بالبلاهة، لكنها أرعبتني عندما قررت تهديدي بابنتي. ذهبت إلى منزلها رأسًا كي أضع حدًا لهذه المسألة، لم تمهلني وقتًا إضافيًا قبل أن أتشاجر معها، رأيتها عارية، تحمل في يديها حزمة من الدبابيس والشموع! اقتربت ولطمتها، ثبت رقبتها بين يديَّ، صرخت في وجهها لماذا تفعل كل هذا،

أردت معرفة السبب، اعترفت أن والدها كان يعنف والدتها بشدة في أوقاتهما الحميمة، كانت أمها تصرخ طوال الليل، وكانت هي تبكي وتظل خائفة.

أرخيتُ كفيّ، وهدأتُ قليلاً، ارتميتُ على أقرب مقعد، مكثتُ بعض الدقائق في هدوء ألتقطُ أنفاسي، رأيت ظلها أمامي وسط إضاءة الأباجورة الخافتة، كانت تقترب خلفي، وضعت يديها على كتفيّ، حاولت جذبي إليها، التفتُ فجأة ولكمتها لكمات متتالية، سارعتُ للخروج من الباب، عندما كان ضربي قد أثارها دون قصد، وزاد حالتها سوءًا. تمسكت بي عند الباب، ونازعتني بشدة، أرادت أن تمنعني من الخروج، قاومتها بشراسة بعد أن تحول ضعفها إلى عنف، وغرزت أظفارها في مقدمة رقبتي، دفعتُها بقوة إلى الأرض، ولكن، لم تسقط وحدها...

- احكي يا منصور، لماذا توقفت؟ ما الذي حدث بعد ذلك؟ اهدأ، اطمئن، أنا هنا لمساعدتك.

ارتطامها بالأرض أحدث جلبة، لم أعرف كيف حدث هذا بالضبط، ولكن سقطت الأباجورة على رأسها. رأيت رأسها غارقًا في الدم، توقفت عن التفكير، وحدقت في منظرها لدقائق، نزلت السلالم بسرعة البرق .

شعرت بالذنب، وخشيت من اكتشاف أمري، تمالكت أعصابي، وتوقف جسمي عن الارتعاد، استقللت سيارتي بسرعة، بصعوبة ضغطت على المقود، كانت كلتا يديَّ ترتعشان، ما كدت أخرج من المنطقة حتى ترجلت منها حين اعترضني زحام مفاجئ على بعد عشرين مترًا.

مشيتُ في الشارع.. كانت المدينة مليئة بالمازوخيين، وعشاق الضرب على قفاهم، عبدة الزعماء والطواغيت، رأيتهم يعترضون طريق عودتي بتجمهرهم الكبير، رافعين أحذية ضخمة على أدمغتهم في فخر! لم يكن ينقص إلا أن يلعقوها! وقفت معهم ورفعت حذاءً!

تركتهم بعد قليل، وتابعت سيري، اخترقت شارع "لام" ومررت بعدة شوارع جانبية، حين وجدت نفسي فجأة محاصرًا في شارع "صاد" مع قلة مندسة من الخارجين على القانون، رأيتهم يسحلونهم بعنف على أرض الشارع، اقتربت من أحد الضباط في حذر، رأيت ظل كفٍ كبيرة تهوي على قفاي، وقبضتين قويتين لشخصين آخرين يمسكان بكلتا كتفيّ.

كدت أن يُقبض عليّ وأذهب إلى ما وراء الشمس، رأيتهم يحشرون عددًا من البشر حشرًا في سيارة للاعتقالات، لولا أنني لوحت لهم باسمي الحقيقي، وكشفت عن هويتي، أنا منصور الربيعي ابن رجل الأعمال المعروف، ابن "ولاد الذوات"، جدودي شاركوا في نهب البلد! ولم يدخروا جهودهم في إعلاء شأنها، تركتنا الوطنية توارثتها عائلتنا بشرف جيلاً بعد جيل، لقد خدمنا هذا الوطن دون كللٍ أو تقصير، وخدمنا حكامه لسنين طويلة. رفعوا عني أكفهم، نظروا إلي في سرعة معتذرين عما بدر منهم، مؤكدين أن حال البلد لم يعد يحتمل إلا القبضة الحديدية في التعامل، للحفاظ على الأمن الداخلي والقومي. سألتهم ماذا فعل هؤلاء الشباب؟ أجابوني بأنهم قد خرقوا قانون التظاهر!

قضيت حياتي مشغولاً بتكديس الثروة، لم أنتبه يومًا إلى حياة البسطاء أو المهمشين، كنت عطوفًا في مكاني، في شركتي الخاصة كنت أعامل الجميع بطيبة، ولم أكن أعلم أن هناك الكثير من القسوة في الخارج. سمعت كثيرًا عن الفساد والمفسدين، لكن لم أكن أعتبر نفسي واحدًا منهم، لم أفكر يومًا في مصدر الثروة التي آلت إليّ وحقيقتها، تملكت أراضيَ وعقاراتٍ كثيرة على أنها حلال ومن حقي دون أن أفكر في الكيفية التي حازها أجدادي بها.

عشت حياتي بالطول وبالعرض، فعلت كل ما أشتهيه، ولم أحرم نفسي من شيء، اشتريت يخوتًا وشاليهات، سافرت إلى أوروبا وأمريكا، زرت سويسرا، تذوقت كل المشروبات الروحية، ونادرًا، تناولت أقراصًا مخدرة لتجريب مفعولها، تعددت علاقاتي النسائية، لم تكن العلاقة الأولى التي أقيمها مع

سـكرتيرة، ولكـن هـذه المـرأة كانـت مختلفـة، لقـد حطمتني مـن الـداخل، وحطمت حياتي كلها.

"عزيزي محمود، المريض الذي سوف يخرج الآن لديه ميول سادية خفية ناشئة الظهور، وربما تكون قد جدت عليه بعض مشاعر المازوخية أيضًا بناءً على حادث أليم ! انتبه، لأنه في حالة انفعال وتأثر شديدين".

يصطفلوا

حسنًا، لقد وقعت هذه الحادثة الغريبة في النصف الثاني من عقد التسعينات، ومع ذلك، فيمكنك أن تعتبرها حادثة عادية تمامًا، وأن تخمن تخمينات كثيرة، وتقترح حلولاً هزلية لهذا اللغز الكبير! ولولا أنني قد شهدت هذا بنفسي، لاقترحتُ حلولاً مثل التي ستقترحها! ها أنت تبتسم وتقول وأنت تهرش دماغك: هذه خدعة! ليس إلا مقلب سخيف، كذبة هزلية لا بد أنّ الفتاتين قد لفقتاها في العام الماضي لجذب الاهتمام وإحداث الإثارة ليس إلا، ولا بد أنهما قد ضحكتا منها كثيرًا أيضًا بعد ذلك! ولكن مهلاً، انتظر، قبل أن تسترسل في خيالاتك، من المؤسف بالنسبة لي، دعني أخبرك أنهُ، كان يمكنني أن أقول مثلك بالضبط لولا أني قد رأيت هذا بأم عيني.

في فناء المدرسة التي تؤدي فيها بنات العائلات المصرية "امتحانات أبنائنا في الخارج" في منطقة "ك" بإحدى دول الخليج العربي، جلستُ أرتاح وحدي في انتظار الخروج، لكني جلست بالقرب من فتاتين لا أعرفهما. كان يبدو أنهما تتحدثان في أمرٍ هام، وأن جوًا مضطربًا يسيطر على سياق الحديث. قالت إحداهما فجأة وهي تلتفت إلي، وعرفتُ أن اسمها سهر: اسمعي إلى هذا الكلام! هذه البنت تقول لي:...

- هه، ماذا تقول؟! ولم أصدق أذني، لأول مرة أسمع بمثل هذا! عندئذٍ فتحت البنت فمها، ثم أغلقته بسرعة، كان يبدو أنها تريد أن تقول شيئًا ما، لكنها تستجمع شجاعتها. تلعثمت قليلاً، وقطع القلق ملامحها تقطيعًا، لكنها قالت فجأة كأن الكلمات تخرج من تلقاء نفسها: أنا بنت عمي أمها إسرائيلية! وصُعقت سهر للمرة الثانية، لكنها استوعبت الجملة أسرع مني، بينما احتجت إلى التكرار عدة مرات حتى أستوعب.

سرعان ما توالت الأسئلة على البنت التي فجرت القنبلة، تجمعت ثُلَّة كبيرة من البنات: طب ازاي؟! هوه عمك أصلا مش مصري؟!

- لا مصري، بس هو اتجوز وحده اسرائيلية.

- ازاي بقى وقابلها فين؟!

وشعرت البنت بضيق مفاجئ كأنها قد تحدثت أكثر مما ينبغي! أو كأنها متهمة يقذفونها بالأسئلة، وينتظرون أن تبرر وتدافع عن نفسها، كأنها هي المعنية بالأمر لا ابنة عمها المجهولة التي لا يدري عنها أحدٌ شيئًا. ولحسن حظها، دق جرس الخروج، فتخلصت منهن بسهولة.

ملأتني القصة استغرابًا، وعندما تجاوزت عتبة الباب خارجة من المكان أدركتُ بإحساسٍ جلي أن هذه البنت لم تكن تتحدث إلا عن نفسها، إنها قصتها هي، وليست قصة أحد آخر، ليس ثمة ابنة عم في الحكاية!

في العام التالي، قابلتها في الفناء مصادفة، شعرت بتعاطف نحوها، ولم أكن أنوي بأية حال أن أواجهها بحدسي بالحقيقة، أردت أن أطمئن عليها فقط. سألتها: إزيك يا جيمين؟ لكن البنت لم ترد، كررت السؤال، لكنها لم ترد أيضًا، وتابعت طريقها! لكني لم أسكت، لقد طاردتها ولاحقتها بالسؤال، فالتفتت فجأة وقالت: أنا مش جيمين.

- لا بس انتي...

قاطعتني: مش انا! ومضت سريعًا.

بالفضول القوي، أردت أن أكتشف سر هذا الموضوع، وقفت متربصة أبحث حولي، وأخيرًا استطعت أن ألتقط سهر : خدي خدي تعالي، هي البت دي مش كانت مسيحية السنة اللي فاتت، وكان اسمها جيمين؟!

- جايبه الكلام ده منين؟!

- قوليلي الصراحة، والله مش هقول لحد.

رفعت حاجبيها ثم أنزلتهما، لم أخمن إن كان بطريقة مفتعلة أو حقيقية. قالت بهدوء تُحسد عليه: حرام عليكي ما تقوليش كده، دي مسلمة، واسمها جمانة، ولسه كانت بتصلي دلوقتي! حتى تعالي هكلمها قدامك.

- طب استني هو انتي صاحبتها، ولا كنتي قاعدة معاها بالصدفة؟

- قاعدة إمتى؟!

- إنتي صاحبتها طيب؟

- أيوة.

- طب تعرفيها كويس يعني، تعرفيها منين؟

- لا، أنا عرفتها من الامتحانات هنا بس.

ومضينا رأسًا نحو البنت التي كانت ترتدي عباءة وحجابًا هذه المرة، وتبدو على وجهها أمارات الرضا والسلام النفسي.

قالت سهر: قولي لها إنتي اسمك إيه؟!

نظرت البنت متعجبة كأنّ سهر لا تعرف اسمها: اسمي جمانة.

وانفعلتُ فجأة: انتي مش كان اسمك جيمين السنة اللي فاتت؟!

قالت البنت: أنا؟! مين اللي قالك كده، أنا اسمي جمانة.

- هوه انتي مش كنتي مسيحية؟!

- أستغفر الله، طول عمري مسلمة والحمد لله!

أبدت عدم تصديقها،وأصرت على موقفها دون فائدة، لكنها شعرت فجأة بالشفقة عليهما، وأنها لو بقيت تجادلهما هكذا فستكونان في أشد الضيق والحرج، لأنهما تتظاهران. "هؤلاء الأوغاد يخفون شيئًا!" خجلت أن تحرجهما أكثر من ذلك، تركتهما ومضت وهما مصرتان على الكذب. وضربت كفًا بكف متذمرة، "يا ولاد الكلب يعني انا كانت بتجيلي تهيؤات؟!" وقالت في سرها أيضًا: هذه الغبية لم تكن خائفة، إنها تتحدث في ثقة! وأومأت برأسها إشارة ما يقوله السوريون" يصطفلوا"!

بعد سنوات طويلة، فتحت شبكة الإنترنت، لتبحث عن معنى هذا الاسم:

The name Jamin is a baby boy name! In Hebrew the meaning of the name Jamin is:.....

In American the meaning of the name Jamin is: .....

جمين حسين؛ الملفات الشخصية في فيس بوك، جمين علي، لم يفلح بحثك في العثور على نتيجة، هل تقصد معنى اسم جمانة؟، جمان، الشيخ صلاح جمين، الـ...

اللعنة! ماذا يعني كل هذا؟! وغمغمت: يصطفلوا!

عار في الشرفة الشرقية

يعرف المشتغلون بالكتابة جيدًا أنّ شرارة من الواقع قد تتحول إلى نارٍ هائلة مكتوبة تلتهم أقلامًا من الحبر، وعشرات أو مئات من الصفحات البيضاء. وأنّ مشهدًا صغيرًا عابرًا قد يتحول إلى قصة حياة بأكملها أو رواية كبيرة.

ولأنّ سمر المنفلوطي التي اشتهرت في قريتنا بواقعة انتحارها كانت من الكتاب، ولأني أنا شاهد العيان الوحيد على الحقيقة، لأني طرفها الثاني؛ فإليكم تفاصيل الأحداث كاملة!

لم يصدق أحد في القرية بأن سمر المنفلوطي لم تخن زوجها، كما لم يتقبل أحد فكرة أن تكون لها صداقة بريئة ترتبط بالأدب مع الكاتب الثاني الذي كان طرفًا أساسيًا في قصتنا، والذي هرب رغم أن ليس له ذنب، تاركًا وراءه أبوين محطمين كان كل أملهما في الدنيا!

بتاريخ يوم 11 نوفمبر 2008، كانت سمر تطل من شرفة منزلها الشرقية عندما وقعت عيناها على منظر مبتذل وعادي في الشرفة الشرقية المقابلة! كانت الجارة انتصار حلمي، المتزوجة، وأم لأربعة أبناء، تجلس في شرفتها الرابعة فجرًا، مستعينة بإضاءة خافتة لإنعاش أحلامها وحالتها الحالمة، تنظر بدفء رومانسي إلى الأفق الذي حجبت معظمه تقاطعات الشوارع في القرية المتمدينة وعمارات سكانها، سارحةً بخيالها كأنها تفكر في حبيب.

ذلك المشهد التافه الذي ربما يمر على أي شخصٍ آخر غير سمر دون أن يكون له معنى ! ولكن وحدها ابنة المنفلوطي؛ قررت أن تصنع منه رواية عميقة عن خيانة زوجية وامرأة تقع في غرام صديق زوجها، ولكي تجعل المرأة تبوح بأشواقها وتبرر خيانتها بصورة جيدة، قررت أن تجعلها كاتبة حتى تتقن البوح عن انفعالاتها وأسبابها، كبطلة رواية الرباط المقدس لتوفيق الحكيم.

تأتيني سمر مساءً في الثامنة، تمكث عندي ساعة لتخبرني بمخططاتها وفرحتها الكبيرة بالعثور على حبكة محكمة لرواية جديدة. أنصحها ببعض التفاصيل هنا وهناك.

تقول لي: ولماذا لا تكتبها معي؟! تقترح أن يكون عملاً مشتركًا، "الأعمال المشتركة في الأدب نادرة ولهذا تلقى رواجًا أكثر من غيرها، كما أن التعاون قد ينجز عملاً رائعًا فهو يعود بالفائدة والثراء على العمل المكتوب" وأوافق فورًا بكل سرور، نتفق أن أكتب مشاعره هو وأتقمص صوته، رواية متعددة الأصوات، ستتولى هي صوت الخائنة، ثم سنتولى معًا في النهاية صوت الزوج المكلوم.

يتعثر على عتبة الباب وبالكاد ينقذ نفسه من السقوط، يأتيني هائمًا على وجهه هيمة الغضب والشك، يخبرني أنه لن يسامحني أبدًا" !اهدأ، أرجوك! من أدخل في عقلك هذه الترهات يا صديقي؟! "ينتشر في القرية خبر خيانتنا، مدعمًا بتردد سمر على منزلي وترددي على منزلها في غياب زوجها المشغول كثيرًا، الزيارات التي يعلم بها زوجها ويعلمها الجميع من قبل، تحولت مرفقة بأوراق المسودة التي لم تكتمل بعد حيث ينقصها صوت الزوج إلى دليل إدانة.

الصداع ينخر عظم رأسي، من سرقها من هنا؟! من يمكنه أن يفعلها؟ فعلة خسيسة! من أعطاها له، وصور له الأمر على هذا النحو؟ الشيطان يلعب في عقلي، يوسوس لي بنظرات زوجتي الهادئة اللابثة في الركن على المقعد؛ تتظاهر عن قصد بالانشغال بأعمال التطريز كأنّ الأمر لا يعنيها !

سأفعلها في الغرفة المقابلة للصالة، سأشنق نفسي، أنا طارق الخيام، الشاعر والروائي، سأعلن لكم بورقة اعتراف مكتوبة قبل موتي بأني بريء من

التهمة الموجهة إليّ، وبخصوص السيدة سمر فإنها بريئة أيضًا، تهمتي الحقيقية أني كاتب !

يعرف الجميع في القرية أننا أسرتان متحضرتان، أنا وصديقي يحيى نتميز بسعة الأفق، كيف يتصرف كشخصٍ متخلف هكذا؟! كيف يصور له عقله الذي ما لبث أن أصبح مريضًا بعد شكه هذا أوهامًا من هذا النوع؟ كيف يخلط الواقع بالوهم هو عاشق الأدب وقراءة الروايات!

أنظر إليها بكراهية، أريد أن أسحبها من شعرها فجأة، وأمسكها بعنف، وأنهرها صارخًا: كيف أصبحتِ غبية هكذا؟ زوجتي منذ عشر سنوات، كيف تسلل إليكِ شك مثل هذا ونسيتِ العشرة الجميلة بيننا، أتغارين من سمر الأديبة التي قدمتِ لها بنفسك فناجين القهوة مرات ومرات، واستقبلتِها في بيتنا بالترحاب؟!

أقترب منها قليلاً، تخور قواي في منتصف الطريق، عند مترين يفصلانني عنها أغير خطتي فجأة وأصرخ قائلاً: هيا، بسرعة، سوف نهرب من هنا !

سيرتي يلطخها عار ذنبٍ لم أرتكبه، أرحل تاركهما خلفي يشكان بالأمر مثل الجميع، تتبعني أخبار سمر لاحقًا؛ قيل أنها قد شنقت نفسها، وقيل أن زوجها قد تحول إلى وحش فتكفل وحده بالمهمة! ولعنة لن تنتهي ما دمت حيًا أكتب، فشخصيتي هي ما أكتبه من وجهة نظرهم !

أقف ساخطًا على البشر والحياة، وأنظر إلى الشرفة الشرقية المقابلة لشرفة مسكني الجديد، لأرى شيئًا ما هناك!

أفكار للبيع

من يشتري فكرة؟ لدي أفكار رهيبة لكتابة روايات، قصص قصيرة، قصص طويلة، متتاليات!

يتنقل بين المنتديات الأدبية حاملاً بضاعته. يعرض جزءًا منها في صندوق الرسائل الخاصة، ويحصل على ثمنها في مكان يُتفق عليه يسلمها فيه كاملة.

في ذلك المساء، غمرته بهجة خرافية تخللها الجشع عندما وقع على صيدٍ ثمين هذه المرة؛ "عطية الزلباني"، أشهر أديب في مصر هاته الأيام، الأديب الذي تبيع رواياته نسخًا بالملايين.

في البداية، تردد كثيرًا في الكشف له عن سر مهنته، قدم رجلاً وأخر الأخرى، تلعثم وتخوف، كان يخشى أن يكون عطية الزلباني من الكتاب الشرفاء لا قدر الله! أو أنه لا سمح الله من هؤلاء الذين يتمتعون بموهبة حقيقية، صقلوها بتجربة عصامية لم يعتمدوا فيها على أمثاله.

كان عطية مثلاً أعلى في عينيه، وها هو يتهاوى من عليائه. كيف لا؟ وهو سمير الشرنوبي من طبقت شهرته وإغراءاته الآفاق من تحت "الطربيزة"! لا يقف أمامه شرف، ولا يصمد أمام أفكاره ضميرٌ ميت ولا حي، على حدٍ سواء. باستطاعته أن يُغوي أعتى العتاولة العظماء من العصاميين والشرفاء، الذين شقوا طريقهم بأنفسهم في عالم الأدب.

ولكنّ شريف أتعبه جدًا هذه المرة، كان يرغب في فكرة غير تقليدية، فكرة لم يؤتَ بمثلها من قبل، لا في الشرق ولا في الغرب. وهذا ما جعل يد الشرنوبي يُسقط فيها، إذ من أين له هو بائع الأفكار العظيم بأفكار جديدة غير مسبوقة لا في الهُنا، ولا في الهناك!

لقد قضّى عمره في قراءة الروايات، والآداب العالمية الحديثة والقديمة، المترجمة وبلغتها الأصلية، المشهورة والمغمورة، بغية انتقاء المناسب منها لبيعه وتسويقه! قد يبيع الفكرة بحذافيرها، وهذا يحدث عندما تكون مغمورة في بلدها المنتج فما بالك في بلدنا نحن! وقد يبيعها مطعمة بأجزاء مقتطعة من أفكارٍ أخرى، تقل أو تكثر حتى تشبه لوحة فسيفساء.

لا بائع أفكارٍ آخر يضاهي سمير في مهارته الفنية. في عمليتي الانتقاء، والقص واللصق، فهو متميز في مجاله.

في تلك الليلة لوّح له الزلباني بقبضة يده مهددًا إن هو لم يطور الفكرة التي أعطاها له، فيجعلها أكثر جدة وإثارة. أخبره أنه سيمنع عنه باقي المبلغ، ولكن الشرنوبي بدوره لم يسكت على هذه الإهانة، لقد أقسم أن يفضحه فضيحة حرامي الأحذية بين الأدباء! فما كان من الزلباني إلا أن تقهقر وتوتر، ووضع يده على رأسه متحسسًا شيئًا ما من فوق طاولة المطعم التي كان يجلس عليها، وهو يتخيل، أنّ الأنظار كلها كانت موجهة إليه في هذه اللحظة. وقد صدق حدسُه، فابتسم على حين فجأة، وأخرج شيكًا دسه في يد الشرنوبي خلسة. مسح فمه بمنديله، ودفع الحساب، وخرج ماضيًا في طريقه متجهًا نحو سيارته في غمٍ وكدر.

ثورة الحبر

في المرة الأخيرة التي أمسك بهاتفها المحمول، مزق شعرها وخلع ضرسًا !

كانت واقفة بسعادة بالغة، بهجتها لم تكن مصطنعة أبدًا أو رسمية، إلى جانب رجل أوسم منه، على وجهه ابتسامة عريضة، وفي عينيه نظرات شوق نحو الأفق، يا له من انسجام! هذه هي لحظات العمر الآسرة التي يمكن في سبيلها أن نضحي بكل شيء .

تحملته لسنوات دون أن تعترض، لماذا وإلى متى سوف يقف في وجه سعادتها؟ مستقبلها أمامها، وفي ألبوم صورها، يقبع مستريحًا بين أركان الصفحات المغلفة كل الحب وأكثر مما تتمناه، ألبوم العمر والحياة ، نقيض الموت، ألبوم الضرورة والاحتياج. تحرقها رغبتها في الولوج إلى عالمه السحري ودخول مملكته، من أوسع أبوابه .

في منتصف الصورة كانت تمسك بكتاب. مولوده الخامس، مسرورة أنها تحمله، ومن ورائها بوستر الحفلة .

مكتوب في كتاب المجتمع المرضان: باب الأدب ملعون، ومطرود من رحمة ضيقي الأفق، الأزواج الغيورين، والأمهات المحافظات، وآباء وإخوة الدقة القديمة.

مكتوب في كتاب الأمثال: المكتوب على الجبين لازم تشوفه العين. وفي كتاب "فتنة الحكاية" مكتوب أنّ ريلكه يقول: اسأل نفسك ما إذا كنت ستموت أم لا لو أنك قد حُرمت من الكتابة، اسأل نفسك في أهدأ ساعات الليل، ألا بد أن أكتب؟!

وقفت بفتنة أمام المرآة الصغيرة، نظرت، وقالت لهم جميعًا: أنتَ طالق! مرغت حبرها الأسود على قصاقيص الورقة البيضاء، تناولت ورقة جديدة، وحاولت.

أحلام صغيرة

تفتحين هاتفكِ مساءً، تثرثرين مع نفسك، تشرعين في كتابة مذكرة جديدة. تبدئينها كأنكِ تتحدثين لشخصٍ آخر بائحةً بحكمة عميقة من كلمات، لستِ متأكدة إن كانت عميقة فيما هو أبعد من ذلك!

"نقول أحلامنا الكبيرة للجميع، ونخجل من ذكر أحلامنا الصغيرة، أو التي نعتقد خطأ أنها صغيرة، تلك التي كانت ستغير حياتنا للأبد لو تحققت يومًا، ستمنحنا حياة مثالية أو شبه مثالية كنا نحلم بها. تفركين رأسك فجأة قبل أن تواصلي كأنكِ قد وقعتِ على اكتشاف خطير!، إذن فالأحلام الصغيرة مثالية، نحن نخجل من فكرة المثالية نفسها، نفلت من هذا السحر، لنبوح بأحلام كبيرة يعتبرها الآخرون واقعية ومهمة."

من الذي يحدد أهمية أحلامَك؟! وما الذي يعرفونه هم عن أهمية الأحلام الصغيرة المتناثرة المختبئة بداخلَك؟! إنهم لا يعرفون شيئًا، ولن يعرفوا، وستضطر أنتَ لمجاراتهم دائمًا! والثرثرة عن حلمٍ كبير سيبدو منطقيًا ومهمًا، فقط لأنه يحمل هذه المسحة الواقعية اللعينة، فقط لأنّ احتمال تحققه أكبر من احتمال تحقق حلم صغير بشكلٍ لا يصدق!

حسنًا، أريد الزواج من طبيب نفسي! لو خطر ببالكِ هذا، ما احتمالية أن يتحقق الأمر؟ احتمال ضعيف جدًا، أضعف من احتمال حصولكِ على ماجستير ودكتوراه بتفوق، وحصولكِ على وظيفة أيضًا "أحلام كبيرة". يبدو الحلم الصغير سخيفًا، مفتقدًا للمنطقية في عيون الآخرين. ما احتمالية أن تقابلي طبيبًا وتحبيه؟ بالتأكيد، أنتِ لا تنوين الوقوع في غرام أول طبيب من هذا النوع ستصادفينه في حياتك، بل لا يمكنكِ أن تسعي لهذا بنفسك، هراء! وأزيز السؤال يخترقُ دماغكِ ملحًا: ما احتمالية تحقق هذا الأمر؟

من ستشرحين له مبررات تعلقكِ السري بهذه الأمنية؟!، وإن شرحتِ، من سيمكنه أن يفهمها؟ أمنية ستبدو سخيفة، ومبرراتها أوهى، من ستشرحين له نظريتكِ العميقة عن أن مهنة الإنسان جزءٌ لا يتجزأ من شخصيته بصورة رهيبة! الجميع يعرفون هذا المبدأ، لكنهم لا يدركونه بعمق كما تدركينه أنتِ!

تريدين زواجًا يحقق مصلحة عليا بالنسبة لروحك. شخص يستطيع أن يفهمك دائمًا. تريدين زواجًا يحقق مصلحة أقل أهمية، مدقق لغوي، يدقق لي دائمًا ما أكتبُه، يفتشُ عن أخطائي النحوية! تبتسمين للفكرة البلهاء، كانت مجرد نزوة منكِ أن تفكري في الزواج من مدقق لغوي، نزوة لها ما يبررها على أية حال بالنسبة إلى وضعك ككاتبة، وولعك الجنوني بسلامة اللغة.

تريدين الزواج من ملحن أو رسام، سيرسمك في لوحاته، ويعزفك في أغنياته، كانت تلك أمنيتك أيام المراهقة.

ترفضين الآن بعمق من الداخل فكرة الزواج من أي رسام أو ملحن أو أي شخصٍ يرتبط اسمه بعالم الفن والأدب والكتابة.

لن تتزوجي من شاعر، لأنكِ تعرفين جيدًا أنه سيكتب قصائد في أخريات. لن تتزوجي من كاتب بشكلٍ عام، لأنّ النساء هنّ ملهماتهم دائمًا. عندما تحب الشاعرة أو الكاتبة رجلاً، يكون ملهمها الوحيد، لا يمكن للمرأة الفنانة أن يلهمها أكثر من رجل واحد، لكن يمكن لرجلٍ فنان أن تلهمه مئات النساء! من ستشرحين له نظريتكِ هذه أيضًا؟!

تضحكين من السؤال، تتقلص ملامحُ وجهكِ فجأة، ها هو القلق الذي يأكل قلبك يطل من عينيكِ، تخشين من أن تجدي نفسك في النهاية مخطوبة

لطبيب غير نفسي أو مهندس؟ تسود الدنيا في عينيكِ الرومانسية، هؤلاء الأشخاص العمليون! من.. ستشرحين له نظريتك؟

تخاريف قومية

دون أن يكون هناك شخص، قلت لأمي: هل من الممكن أن تزوجوني لشخصٍ عربي في يوم من الأيام؟ فقالت لي: (من باب تقدير البلى قبل وقوعِه) يا بنيتي، الزواجُ من العرب دمار، وانعدامٌ للاستقرار، والغربة كربة! ثم كيف سوف يحصل أبناؤكِ على الجنسية؟ وعندما تحدث المشاكل؛ ستجدين نفسك وحيدة وغريبة ومنسية. فانطممتُ من توي، وأغلقتُ فمي، وقلتُ في سري: كنت أعتقد بعقلي الخرِف أن زواج العرب من بعضهم البعض يدعم القومية العربية بامتياز! ثم توجهتُ فورًا إلى سريري، ولم أنسَ أن أتغطى جيدًا قبل أن أنام، وأنا أعرفُ أن عقلي الخرف لا يضاهيه خرفُ عقلٍ عربي آخر ، إلا فيما ندر ومن لم يرحم ربي!

أنواع

تأمل هندامه في شاشة هاتفه المحمول المغلقة على عجل، متوقعًا حضورها في أية لحظة. تململ في مقعده من روعة الانتظار وقسوته في آنٍ معًا!، بالأمس كانت لطيفة جدًا، قالت أنها تحضر له مفاجأة حلوة، واتفقا على المكان. هل ستوافق على الزواج منه؟ هل ستعلن على الأقل أنها تحبه؟

سيقتله التفكير اللعين، والوقت الذي يمضي ببطء شديد غير عابئ بلهفته، معًا. لا بد أنّ الزمن يتآمر عليه حتى تتأخر عن موعدها ساعتين. اشتعل صدره ضيقًا وغمًا، بحركة لا إرادية قرر أن يعبث بمفرش الطاولة ومناديلها، وهاتفه المحمول لا يتوقف عن طلب الرقم.

"قُلتَ لي قلبي كبير، هل قلت عنه قلب أميرة؟ قلت أشياء كثيرة جميلة، ولكن، ماذا تعرف عن أنواع القلوب؟ وكيف عساك لو عرفت أن تحدد موقع قلبي منها؟، توجد قلوب مهترئة، بعضها تتخلله خدوش، وتشققات سطحية هنا وهناك. وهذه يمكن مداواتها بشاش، وبقع صغيرة من سائل الميكروكروم! لكنّ بعضها تخترقه جروح من النوع العميق، سيمكنك حشو عمقها فيما بعد، بأي شيء يملأ فراغاتها وتجاويفها المخيفة، ثم ترقيع سطحها ببعض القماش!

ثمة قلوب تعلوها طبقة من الصدأ، فلا بد من محاولة تقشيرها أو انتزاع صدئها بحكة شديدة من سلك غسيل الصحون! وهناك قلوب مقطعة؛ أعملت فيها طعناتُ الحب عملها كسكين جازر، يمكن أن يُتدارك ما تبقى منها بخيوطٍ من النوع السميك، وعملية حياكة متعسرة!

القاسم المشترك بين كل هذه الأنواع؛ هو أنه يمكن تدارك أمرها، لكنها تبقى مشوهة. لتتبقى هناك قلوب مفرومة ومسحوقة تمامًا؛ وهذه لا يفلح معها أي نوعٍ من أنواع العلاج. إنها بذاتها لا تصلح لأي شيء غير أن تذروها

رياح الحياة؛ فلم تعد تربةً صالحة لغرس أي حب. كذلك هو قلبي مفرومٌ مسحوق! هي قلوب تنكر ماضيها العريق في الحب، وتكفر به. إنها تنكر نفسها وقدراتها السابقة بعد أن استحالت حقًا إلى شيء آخر لا يمت للحب بصلة! بل إنه ليسهل على القلوب التي لم تعرف الحب يومًا، ولم تؤمن به، أن يُغرس فيها وتعترف به، أكثر من تلك التي كانت أعتى القلوب إيمانًا بالحب في الماضي، لكنها سُحقت وفُرمت، وسُحق معها شيء اسمه الحب كليًا، بحيث لم يتبقَ منه ذرة!

ما أسهلَ أن تنبت زهرة، في قلبٍ لم يعرف الحب من قبل، ولكن سيستحيل عليك أن تغرس مجددًا زهرة حبٍ واحدة في قلب تصحر بعد أن كان حديقة فيما مضى! إنها تنسى ما هو، وتفقد قدرتها على الإحساس به.

احذر أن تكون عنيدًا ومتفائلاً أكثر مما ينبغي. احذر من أن تفكر على نحو يقول لك: بأنك سوف تبدأ قصة حب جديدة قريبًا جدًا، ولا شيء يعنيك مما مضى. الجروح تكره من يتجاهلها، ويتغلب عليها. تكافئه بضربة قاضية فيما بعد. ستستكين لفترةٍ من الوقت ثم ستستعيد نشاطها المسموم، وتعمل معاول هدمها فيك. لا تقاوم جروحك واستسلم لها، حتى لا تجرف نفسك في هذا الطريق، وتجرف معه تربة قلبك الطيب!

أنا لا أستطيع أن أقول "أحبك"، لأني لم أعد أعرف ما هو الحب! هل تعرف أنتَ كم مرة أحببتُ وأخفقت؟! حتى لم أعد أميز ما هو الحب وما معناه، ولا ما الفرق بينه وبين الشقاء؟! ولكنك لن تعرف أبدًا، لأنني لن أحكي لك، ولن تراني ثانية" .

أرخى ستائر أجفانه مقتربًا من الإسدال، تنهد في أسى، لملم الورقة كرصاصة وضعها في جيبه. دفع حساب القهوة التي لم يشربها ومضى.. في اللحظة التي خطا بها خارج المكان، ووطأت قدماه أرض الشارع، شعر بقلبه

محتاجًا إلى خيوط سميكة، وآلة حياكة بأسرع ما يمكن! لم يتذكر كلامها عن أي شيء حلو.. ونسي تمامًا أن يسأل نفسه: لماذا غيرت رأيها؟

اندفاع

تركت نظرتها للمرآة وهي تتمم زينتها والتفتت إليّ، قالت ردًا على ما رويتُه:

الحقيقة الغريبة دائمًا، والتي نعمل على تجاهلها في صمت، هي غياب الأسباب وحضور ما نفعله، إذ لا يوجد سبب واضح للثقة ببعض الذين نثق بهم. لا يوجد سبب للحب! لا يوجد سبب للصداقة! إننا نندفع، لأننا بحاجة إلى ذلك ثم تأتي النتائج غالبًا بما لا يشتهي القلب.

جاءني هاتف مباغت، استدعوني للضرورة، ودعتها وحيتني مبتسمة قائلة: إنها في انتظاري. استقللت سيارتي، فكرت فيما قالته، وفكرت فيها، هي التي سوف أضع بها حدًا لمآسي حياتي، معلمتي وملهمتي التي تتقن فن الحياة.

ذهبت للمستشفى بسرعة، وأنقذت حياة مريض ثم عدت فوجدتها، مع رجلٍ آخر!

جذور

تقول الأسطورة: أننا عندما نُحب، نحبُ الشخص بكل ما فيه، ولكن دائمًا هناك شيءٌ ما يبقى ساحرًا أكثر من غيره في الآخر. شيء يمثل مركز الجذب في العمق. هذا ما أكدته لنفسها، عندما باغتتها لعنة صوته مجددًا، إنها لا تستطيع أن تتخلص من ذكرى هذا الصوت المحفور في أعماق ذاكرتها السمعية رغم كل شيء.

تستمع إلى "س" من المطربين، لأنه يحمل نبرة تشبه نبرة ما في صوته.

تفرشُ أمامها كُراس التخمينات: هل هو العشق، الوله، الحنين؟ لا يهم، المهم أنه يشبهه. هذا الذي يظهر في صوت المطرب عندما يغني، كان يظهر أحيانًا في صوته هو عندما يتحدث! يا له من شيءٍ خارق، ساحر، عميق، بعد سنوات ضوئية من الفراق، بعد رحيلٍ مصحوب بما يشبه الكراهية، بعد عمرٍ بأكمله مضى، وزواجٍ من شخص آخر، وعقلٍ أصبح يقتربُ من الزهايمر!

يا له من شيءٍ لا معنى له غير لعنة أبدية، طلسم سحري لم يجد من يفكه، سر خاص لن تخبر به أحدًا مع سنواتها الخمس والسبعين! فقط، تستدير مع كرسيها المتحرك لتنظر مسلطة بصيص رؤيتها الضعيف المتهالك تجاه جهاز الدي في دي. تأمر حفيدتها بوضع الأسطوانة الجديدة التي تشتريها لها كل عام.

يقول الأحفاد في مرح: الجدة لها مزاج خاص.

- جدتنا ذواقة!

- تيتة تحب الموسيقى.

أسرار صغيرة

في ثانيتين، عدلت الآنسة مها من وضع خصلة شعرها، وأخفت وجهها "المحمر" بيدها، استجمعت شجاعتها وهي تضغط بزر الماوس على "انشر" في حالة جديدة من حالات الفيس بوك:

كلُ إنسان منا لديه أسراره الخاصة الصغيرة التي قد يخبئها للأبد، لأنّه يخشى أن تجعل منه شخصًا تافهًا في المجتمع أو تظهره بصورة الضعيف إن افتضحت! أنا أيضًا لدي أسراري الخاصة التي لن أخبر عنها أحدًا؛ لأنّها تُشعرني بالخجل.

لا أريد لأحد أن يعرف أني قضيت ليلة ليلاء بحق في طفولتي عشية الحلقة الأخيرة من مسلسل "الرجل الآخر" في التسعينات؛ بكيت في فراشي طوال الليل بسببها، وامتلأ حلقي بالغُصَص ، واحدةً تلو الأخرى، حتى أصبت في الصباح بالتهاب شديد في الحلق، وارتفعت درجة حرارتي لثلاثة أيام متتالية، نعم لا أريد لأحد أن يعرف ذلك!

ولا أني أخفيتُ مسودة إحدى قصص مجموعتي القصصية «ذكريات تسعينية» في الدرج لأكثر من أربع سنوات حتى تجرأت ذات يوم وأعدت كتابتها على ملف وورد، لأنّ كتابتها كانت تشعرني بالألم.

لا أريد لأحد أن يعرف أني أصدق كل ما أكتبه حتى لو كان خيالاً خالصًا لا علاقة له بشيء في الواقع، وأنفعل به انفعالاً عميقًا، وأصدق أيضًا كثيرًا مما أراه في المسلسلات والأفلام وما أقرؤه في الروايات. لن أخبر أحدًا بالذي جرى لي عندما أنهيت قراءة «مذلون مهانون» لدوستويفسكي، وغيرها كثير من الأسرار لن أطلع أحدًا عليها حتى لا أبدو في عينيه سخيفة أو غير طبيعية!

وتنهدت بعمق..

تغيير

سيرزقنا الله حسناتٍ كثيرة.

ثم تشرع في شرح تفاصيل الطريقة: شمري أكمامك، ارفعي يديكِ هكذا نحو السماء، اقرئي الفاتحة، قل أعوذ برب الفلق، قل أعوذ برب الناس...

تقاطعها لما: هبة! ماذا تقصدين؟ كيف ستظهر الحسنات هكذا؟!

صديقتي هبة تبتسم بثقة، تقول أنها متأكدة مما تقوله وأنها تعنيه جيدًا. تشير بإصبعها نحوي قائلة بلهجة آمرة تعني الثناء: انظري إلى سالي، افعلي مثلها.

تومئ برأسها في إذعان.

لنصف ساعة، بقينا مبتهلات في انتظار أن تظهر الحسنات، بقع صغيرة مدورة داكنة، فوق جلودنا الناعمة، علامة إخلاصنا وعبادتنا لله .

أنظر إلى يدي التي لم يظهر عليها شيء، ثم إلى عيون هبة الزائغة هنا وهناك وهي تحصي حسنات يديها الملأى. تقولُ والشكُ يغمرُني : انظري، هذه حسنة جديدة ! وهنا أيضًا، هاكِ الثالثة. تبتسم بثقة للمرة الثانية أمام لما التي امتلأت بالذهول ! منة تكذب علينا، الاسم الحقيقي لهبة! شيطانة، يداها مليئة بالحسنات، وتريد أن تقنعنا بأنّ جديدة قد ظهرت فجأة ! يضحكُ وجهي للمرآة.

في عمر الخمس سنوات، كنا ثلاثيًا مرحًا ومجنونًا. أنظر للحسنة التي لاحظت ظهورها فجأة ذات يوم عند منتصف ذقني بالضبط، دون أن أقوم

بأي ابتهالات، في عمر الثالثة عشرة. ألمسها بإصبعي وأبتسم في عمر الرابعة والعشرين.

تقررُ فجأة أنها بناءً على الأدلة القاطعة التي لا تقبل الشك، أطيب بنت فينا، وأتقانا، وأكثرنا صلاحًا. تعبس لينا في غضب. أشطف وجهي ببعض الماء وأفكر: منة لم تكن تكذب، إنها حقًا كانت تعتقد فيما تقوله، ترى، أين هي الآن؟ لعلّها غيرت رأيها!

المحتويات

انتقام 4
العائلة 7
عابر على الجميع 9
استشارة سرية 13
العملية 14
الأرنب 17
الواقعة الأخيرة في سيرة أبي ديك الهلالي 18
من قتل سعيد مسعود؟ 20
الحقوقي 23
رحلة عبد العزيز الستاموني 27
المحطم 36
يصطفلوا 42
عار في الشرفة الشرقية 47
أفكار للبيع 50
ثورة الحبر 52
أحلام صغيرة 54
أنواع 58
اندفاع 61
جذور 62

أسرار صغيرة 63
تغيير 64